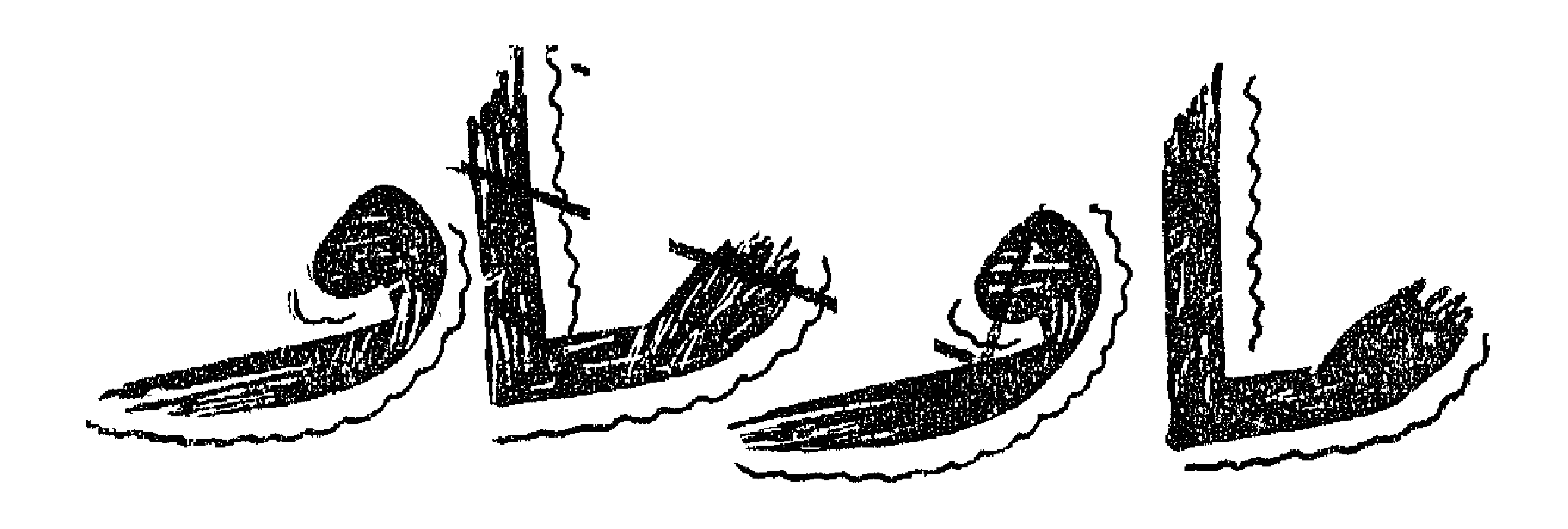

إبراهيم موسى
ماو ماو

ابرهيم موسى



المكتب الدولي للترجمة والنشر
(وجيه راضي وشركاه)
١٠ شارع جلال ت : ٧٦٧٥٣ ر ٤

التوزيع فى مصر
المكتب الدولى للترجمة والنشر
(وجيه راضى وشركاه)
١٠ شارع جلال ـ القاهرة

التوزيع فى السودان والبلاد العربية
شركة فرج الله للصحافة
القاهرة ص . ب ١٥٢٥

طبع فى
دار قنديل للطباعة والنشر
٥٩ (ا) شارع العباسية ـ القاهرة



تعتبر قضية كينيا أخطر قضية فى أفريقيا على الإطلاق فإن الاستعمار الأوروبى إنتزع أكثر من ٦٧٥٠٠٠٠ فدان من أخصب الأراضى من قبيلة كيكويو ثم طردها من « الأراضى العالية » المتناهية فى خصوبتها وترك لها قطعة صغيرة لاينبت فيها إلا الشوك والكلأ . . . فى حين أن عدد رجال هذا النوع من الاستعمار الأبيض لم يكن تجاوز الـ ٤٠٠٠ شخص فى أولى مراحل هذا الغزو الوحشى الغاشم الذى إستعملت فيه حينذاك اقسى انواع الأسلحة

وبالطبع لم يكن فى مقدرة الاستعمار أن يقوم بزراعة هذه الكميات الشاسعة من الاراضى ولكنه لم يقف إزاء ذلك مكتوف الايدى إذ سرعان ما نظر عبر الحدود إلى الجنوب . . . جنوب أفريقيا فقلد ما فعله « إستعمار أبيض » آخر فى هذه المناطق إذ كان المستعمر الابيض يرسم لقطعة الارض التى يريدها الحد الذى يشاء ويمنع الافريقين من زرعها ومن ثم يرسل إلى أقاربه وأصدقائه وأحبابه فى أوربا طالبا منهم الحضور إلى أفريقيا حيث الرزق المقيم والخير العميم ، ثم يقطعهم قطعا واسعة من هذه الاراضى مجانا أو بأثمان بخسة ... وأصحاب هذه الارض الطيبة من الافريقيين ينظرون إلى أراضيهم المعطلة عن الزراعة بحسرة وألم الجوع والحرمان والامراض الناتجة عنهما تحصدهم حصداً ذريعا .

****

ولم يقتصر الاستعمار الذى وعد أهل البلاد الاصليين فى مبدأ الامر بترقية حياتهم ورفع مستوياتهم على حرمان الافريقيين من الارض مورد رزقهم الرئيسى الوحيد فى هذه الاتجاه بل كان يضيف إلى حسناته

المزعومة حسنة أخرى هى سلب السود حرياتهم وتحويلهم إلى « رقيق الأرض » كما كان الفلاحون يعيشون فى أوروبا قبل إندلاع الثورة الفرنسية تحت ظل نظام يعرف بإسم « رقيق الارض » Serfdom وكان الافريقى إذا هرب من هذا اللون الوحشى من ألوان السخرة بحث عنه البوليس ليرده إلى «سيده». فإذا قاوم حسن صنيعهم هذا ورفض العودة إلى جنة الاقطاع كان القتل جزاءه لهذا التمرد على النظم والقوانين التى وضعها « البيض » تنفيذاً للمدنية التى كانوا يزعمون أنهم أتوا بها إلى البلاد ولرفع شأن سكانها الاصليين .

وزاد الطين بله أن الاستعمار فرض التفرقه العنصريه والتمييز بين الالوان والأجناس ، فلا يقيم الافريقى مع الابيض فى فندق واحد ولا يركب معه عربة قطار واحدة أو سيارة أتوبيس ولا يسمح له بدخول بعض الحدائق العامة والمنتزهات والمشارب ودور اللهو وعلى مر الوقت حرم أهل البلاد الشرعيين من دخول أجمل مناطق بلادهم . فضـــلا عن حرمانهم من مورد رزقهم الاساسى ، الارض الطيبة !

☆☆☆☆

ولم تسكت نفوس الافريقيين الابية ولم تستكن لهم قناة أو يخمد فيهم عزم بل هبت فئات متزايدة على مر الاوقات من المجاهدين والمكافحين تدفع هذا العدوان على مصدر الرزق وترد هذا الولوغ فى الاعتداء الغاشم على كرامة النفس البشريه وتقاوم ما إستطاعت هذا الظلم الذى قل أن تعرف البشريه له مثيلا حتى فى أحلك ساعاتها . وإستمرت المعركة وإتصل الكفاح حلقات إثر حلقات مترابطة زمنا بعد آخر وجيلا إثر جيل فى محاولة ضخمة هائلة لاسترداد الارض مورد الرزق وإستعادة الكرامة أساس الحيـــاة الانسانية وعدد الضحايا من المجاهدين يرتفع بإستمرار وتتخضب الارض بدمائهم والاستعمار الغاشم يزداد تنكيلا بالاحرار ووحشيته الاباة وعدوانا على الآمنين وطغيانا على الجميع رجالا ونساء شيوخاً وشباناً ...

⁂⁂

هذه هى قصة الإستعمار مع أهل كينيا .

أما ماوماو .

فإنه إسم يتهمه الغرب بالفظائع والقسوة ضد الآمنين والعزل على حد مازعم. ويشيع عنه أحط وأدنأ الاشاعات والاقاويل محاولين ما أمكنهم الحط من قدر هذه الحركة التحريرية الصاعدة الآخذة فى الانتشار فى جميع أنحاء أفريقيا الوسطى الجنوبية والتى ستنتهى بتحرير هذه الأجزاء من «القارة المظلمة» وأنوف رجال وأعوان وجنود الاستعمار فى الرغام ! !

فهم تارة يذيعون أن رجال ماوماو ذبحوا طفلا أو خنقوا كهلا أو بقروا أحشاء سيدة حامل وأخرجوا الجنين وفقأوا عينيه.. وتأتى أدوات الاستعمار وأجهزة دعاياته فتكمل الصورة بما عرف عنها من أكاذيب وإفتراءات وإدعاءات فتقول إنهم إختطفوا وليداً ووضعوه فى قدر يغلى وأخذوا يدقون الطبول ويرقصون حوله رقصه الموت حتى نضج لحمه ومن ثم أخرجوه على أسنة الرماح ونهشوه نهشاً بين صيحات الفرح من الآكلين وهتافات التأييد والاعجاب من المشاهدين ! !

⁂⁂

بمثل هذه المفتريات الصبيانية على حقارتها وبمثل هذه الإدعاءات المضحكة والمبكية معا على ضعتها ودنائتها يحاول الاستعمار الذى إنكشفت ألاعيبه فى كل مكان وهتك ستره فى كل قطر وتمزق الحجاب عنه فى كل بقعة يحاول هذا الاستعمار وقد أخذت الشعوب بخناقه من جانب وصارت توجه إليه الضربات القاتلة ليلقى حتفه الأخير ... يحاول أن يشوه كفاح الشعوب وجهاد الجماعات وتضحيات المجاهدين وإستشهاد المكافحين، ناسيا أو متناسيا أن ماوماو هى فى الواقع إسم لعشرات الألوف من الأبطال المناضلين سبقهم غيرهم من جماعات فدائية شتى قبلهم كانت لا تملك إلا الحراب المشرعة فى الليل والخناجر التى تلمع تحت ستر الظلام ، والروح الأبية

الوثابة التى لاتقهر والعزيمة الملتهبة التى لا تلين لها قناة والرغبة الجامحة فى التحرر والانطلاق من إسار الاستعمار وقيود الذل والاستغلال .

٭٭٭٭٭

تملك ماوماو الخناجر ....

ويملك الاستعمار طائرات الفامبابر والتيفون ... تملك ماوماو الحراب ..

ويملك الاستعمار دبابات شيرمان وفلينتين ؛ تملك ماوماو مجموعة من القنابل اليدوية المصنوعة محلياً ....

ويملك الاستعمار أحدث أنواع المدافع وأقواها ضربا وأبعدها مدى ..

تملك ماوماو الرغبة النبيلة الشريفة فى التحرر والانطلاق ...

ويملك جنود الاستعمار الشهوة الدنيئة فى السيطرة والاستعباد والإذلال ..

تملك ماوماو روحاً متصاعدة وكأنها قدت من صخر فهى لاتعرف إلا النصر أو الموت ...

ويملك جنود الاستعمار روحاً متخاذله لاتعرف سوى الإغتصاب والسلب والنهب ، أو الموت ...

تملك ماوماو القليل من أسباب النصر مادياً والكثير الذى لايفنى معنويا . . . .

ويملك جنود الاستعمار كل مقومات النصر مادياً والقليل المتضائل أبداً من هذه الأسباب معنوياً ...

وتقاتل ماوماو الاستعمار فيكون النصر فى جانبها والهزيمة فى جانبه ..

وتحارب ماوماو الإستعمار فتحيا ويموت وتكافح ماوماو فتعلو الى السماك ويهبط هو إلى الهاوية .

وتجاهد ماوماو الاستعمار فتبقى ويزول هو ؛ وقد كتب الكثير من الانجليز وغيرهم الفصول الطوال عن هذه الحركة الوطنية العظيمة التى لاتملك إلا أن نحنى هاماتنا إجلالا للقائمين بها وتعظيما لتضحيات الشهداء من أبنائها

مثل الكاتب الانجليزى المشهور و . ه . ردكليف الذى أصدر كتابه المشهور عنها سنة ١٩٤٤ إلا أن نزعته الاستعمارية كانت تغلب عليه فى الكثير من الأحايين فكان لايفتأ يوجه أشنع التهم إلى المكافحين والمجاهدين من أبناء ماوماو .

*****

غير أن القاهرة أصبحت منذ قيام الثورة فى مصر مركزاً عالميا للاشعاع الوطنى وكعبة للمكافحين والمناضلين والساعين فى تحرير أفريقيا ...

وقد التقى المؤلف بالكثير من أهل الصومال وأغندا وكينيا وتنجانيقا وسمع منهم القصص العجيبة التى إختار منها ما سيرد فى هذا الكتاب .

ولا نستطيع أن نقول أن هذا كتاب عن كينيا أو قضية الأراضى الزراعية التى إغتصبها الاستعمار فى هذه البلاد أو أنه كتاب عن مستقبل شرق أفريقيا أو قضية الاضطهاد العنصرى فى جنوبى هذه القارة ... ولكنه على أية حال مجموعة من الصور مما يحدث هناك . وفصل « الأبطال » فى هذا الكتاب يدور حول شخصيات حقيقية وحوادث تاريخية وقعت فعلا فى البلاد ومهما كتبنا فى تمجيد هؤلاء الأبطال والاشادة بتضحياتهم فى سبيل حريات بلادهم فإننا لن نفيهم حقهم إذ للقارىء أن يتصور نفسه مع نفر قليل من رفاقه لا يملكون غير الخناجر والحراب والبنادق العتيقة ثم يرون حولهم فى الغابات جيشا عرمرماً أضعافهم فى العدد والعدة مجهزاً بالطائرات ومزوداً بالدبابات وأخطر أدوات القتال ثم يصمد الآخرون فى أمكنتهم إلى أن يفنوا عن آخرهم مفضلين الموت على الحياة فى سبيل بلادهم .

للقارىء أن يتصور هذا فيدرك خطورة هذه الحركة الفدائية ومدى إستبسال رجالها وجسامة التضحيات التى يقومون بها . .

إن كينيا أرض طاهرة خضبت بدماء الشهداء وهى تتطلع إلى مصر

راجية أن يحقق لها ما حققه المصريون لأنفسهم من إجلاء لقوات الاستعمار والتحرر من عبودية الخضوع لسيد أجنبي ...

وليس أمام المصريين إلى أن يلبوا النداء فيمدوا لهؤلاء الابطال يد العون ويجمعوا لهم التبرعات لشراء السلاح ويواسوا منهم المصاب ويعالجوا الجريح ويأووا الايتام والارامل فإنه سيأتي يوم تنهض فيه مصر بدور أخطر من دورها الحالي هو اليوم الذى تتزعم فيه حركة التحرير بأسرها في هذه القارة فتحيلها إلى قارة متحررة بعد أن ظل الاستعمار يطلق عليها قرونا متتالية اسم « القارة السوداء »

هذه هي كينيا

* غزا المستعمرون الاوربيون ، ومعظمهم من الانجليز ، ساحل شرق أفريقيه في أواخر القرن الماضي واستولوا في كينيا على « الاراضي المرتفعة » وهي أخصب بقاع افريقية وجوها أكثر اعتدالا من أي منطقة أخرى في وسط القارة لارتفاعها عن سطح البحر ، ومجموع مساحة كينيا ٢٢٥٫٠٠٠ ميل مربع .

* تبلغ مساحة هذه « الارضي المرتفعة » ١٢٠٠٠ ميل مربع ، وهي خصبة جدا وكان يملكها أفريقيون فطردهم منها الاوربيون . واستولوا على الأرض عنوة وحرموا على السود أن يشتروا أو يؤجروا شبرا واحدا من هذه الارض .

* بعد نزول المستعمرين البيض في كينيا وطردهم لقبيلة كيكويو من أرضها الخصبة أصيب هؤلاء بسبب العري والتشرد والمجاعة بأمراض وأوبئة خطيرة . قضت على كثير مما بقي من قوة معنوية في نفوسهم ، وابادت الالوف منهم وتركتهم أقرب إلى الموت والفناء منهم إلى الحياة .

* لا يستغل هذه المساحة الواسعة الآن . سوى ٤٠٠٠ من البيض . وقد يسمح للسود بدخولها كأجراء يتناولون دراهم معدودة أجراً والعامل يجلد عادة لأتفه الاسباب .

* أنشأ البيض الفنادق والمنتزهات وسيارات الاتوبيس والترام وغيرها وحرموا السود على أن يجلسوا فيها جنبا الى جنب البيض .

* في عام ١٩٣٠ اصدر الانجليز . بعد تحقيق طويل . كتاباً أبيض يقولون فيه إن كينيا بلد أفريقي أولا . وانه يجب أن تكون مصالح الافريقيين

فوق كل اعتبار . بل يجب أن تكون مصالحهم فوق مصالح المهاجرين ولكن الزراع البيض اجتمعوا فى ابريل ١٩٥٣ وطلبوا مصادرة مابقى من أراض زراعية فى ايدى رجال قبيلة كيكويو . والغاء ممثلى السود والآسيويين فى المجلس التشريعى والحكومة !

* جاهد الوطنيون من عام ١٩٢٢ جهادا سلمياً متصلا فلما لم تتضح لجهادهم هذا نتيجة نشأت حركات متحررة عنيفة للرد على فظائع الانجليز بمثلها . وهى التى خلفتها ماوماو بعد سنوات طويلة ، وغيرها من الجمعيات السرية الاخرى .

* انشأ المثقفون حركة وطنية كانت تختصر باسم «كاو» وكان زعيمها جومو كنياتا . ولكن نصيبها كان الاضطهاد والتشريد والغرامات المالية ومصادرة صحفها وكتبها . فيئس الناس من هذا الجهاد السلمى وتألف فرع جديد باسم ماوماو ، للجهاد والحرب والكفاح المسلح .. وهى اللغة الوحيدة التى يفهمها الاستعمار .

* من اشهر الظواهر الجديدة التى صاحبت حركة ماوماو القسم فكل متطوع جديد يقسم ان يفدى بلاده بكل ما يملك . وان يفنى فى الدفاع عن قضيتها . وأن يطيع الأوامر الصادرة إليه ولا يتردد فى تفيذها .

* كان فى استطاعة السلطات البريطانية أن تترك الحركة الوطنية المعتدلة تقوى على مر الزمن وان تحاول التفاهم معها . حتى تخف حركة الارهاب . ولكن الاستعمار قصير النظر انانى كعادته دائما . ولهذا زجوا بالزعماء فى السجون فاشتدت حركة الارهاب من جانب الطرفين . وفرض الانجليز الغرامات الجماعية الفادحه على السكان الآمنين . . وشنقوا ونفوا المئات بل الالوف .

* هجر ١٠٠ الف عامل اسود اراضى البيض وانسحبوا الى المناطق

المخصصه للسود وحدهم وكثرت حوادث التعذيب لارغامهم على العودة ولكنهم كانوا دائما يرفضون مهما استعمل معهم من قسوة .

بعد سنوات طويلة من الكفاح المتواصل . لم تتقدم قضيه الوطنيين خطوة واحدة . فاخصب الاراضى مازالت فى ايدى البيض . والمزارع مازالت تدر على ال ..... ٤ ابيض الذين يقطنون الأراضى العالية التى تبلغ مساحتها ...ر١٢ ميل خيرات هائلة ؛ وما زال الملايين من السكان الوطنيين السود يموتون جوعاً

* تملك قبيلة مازاى ، وعدد افرادها ٥٥ الف نسمة . ١٫٥ الف ميل مربع من الارض ولكنها شبه مجدبة لاتستعمل إلا لرعى الماشية النحيلة العجفاء التى تملكها القبيلة . اما القبائل الاخرى فأنها فى حالة تشبه الموت جوعاً .

* وقبائل كينيا كثيرة العدد . ولكل منها لهجتها . ولكنها مجموعتان وتسمى المجموعة الأولى منها باسم بانتو ، وهى تضم الكيكويو والوكامبا وقبائل صغيرة كثيرة أخرى . والقبائل النيلوحامية . وقد يكون اصلها من منابع النيل ، وتشمل قبائل « لوو » ونا ندى ومازاى وغيرها .

* اللغة المشهورة والمشتركة فى شرق أفريقياهى « السواحلى » وفيها كلمات عربية كثيرة ، وهى غير اللهجات المحلية .

* يقدر عدد سكان كينيا من الافريقيين بنحو ...ر...ر٥٫٣ افريقى منهم ١٢٠ الف آسيوى و٤٠ الفا من الاوربين .

* اعتمدت جماعة ماوماو حتى الآن على قبيلة كيكويو التى تكون ربع عدد السكان وسبب ذلك أنها القبيلة التى انترعت اخصب اراضيها واستولى عليها البيض . ولهذا كان الجهاد والكفاح مقصوراً عليهافى أكثر الاحوال .

* قبل عام ١٩٣٥ كان الفلاحون الافريقيون يلزمون بالعمل فى مزارع

البيض بطعامهم فقط . وكانوا شبه ارقاء . ولا يبلغ المزارع الابيض عن خروج فلاح أفريقي من عمله حتى يبحث البوليس عنه . كأنه مجرم هارب من عقوبة . وكانوا يطلقون عليه اسم « الفار من الخدمة » ثم يتصيدونه إلى أن يعيدوه إلى « سيده » وإذا تعذر عليهم ذلك وقاوم قتلوه ؛ ولاتزال الاحوال سيئة ولكن هذا الرق ؛ أو « عبودية الارض » الغي من ٢١ سنة .

* لايستطيع الافريقي ان ينزل في فندق للبيض . أو يدخل باراً للأوربيين وفي أكثر القطارات وسيارات الاتوبيس ثلاث درجات ، واحدة للاوربيين وهي العليا . والثانية (للاسيويين) وهي الوسطى . والثالثة للافريقيين وهي السفلى .

* من غرائب التفرقة العنصرية ان مدرساً مصريا في السودان ذهب مع زميل له الى كينيا . مع جمعية علمية . وكان المدرس ابيض اللون يشبه الاوربيين فوضعوه في فندق للبيض . وكان زميله اسمر اللون فوضعوه مع الاسيويين في فندق آخر . وكانا إذا أرادا السفر إلى جهة ما ركب كل منهما مكانا خاصا في القطار . وقد انتقل المدرسان من السودان واصبحا مفتشين بوزارة التربية والتعليم !

والمفتش الابيض فيهما هو الاستاذ حسين شاكر . أما الثاني فلاتعي الذاكرة أسمه !

* من الاقتراحات التي رفضت أن لايزرع الاوربي إلاما يستطيع زراعته وان يبيع مابقي لقبيلة الكيكويو التي أنتزعت منها هذه الارض ويرى الخبراء أن هذا اصبح أمراً ضروريا ، ولاسيما ان بعض البيض يملكون مساحات واسعة جدا ، ويملك احدهم مثلا ٣٠ الف فدان من الارض التي سرقها اباؤه واجداده من قوم يتضورون جوعا بسبب هذه الجريمة

الانسانية الكبرى التى ترتكب تحت سمع وبصر الهيئات الدولية التى لاتحرك ساكنا

* فى كينيا كما هى العادة فى البلدان التى ابتليت بالاستعمار قوم معتدلون أكثرهم من الاسيويين ويفضلون حل المشكلة بالمفاوضات حقناً للدماء . ولكن الحد الادنى لمطالبهم يقابل من الاوربيين بالرفض دائما .

وهذه المطالب الانسانية المتواضعة العادلة لاتزيد عن : ـ

١ ـ الغاء التفرقة العنصرية فى الفنادق والاندية والاماكن العامة الأخرى

٢ ـ الغاء الرقابة على الصحف وانسحاب قوات جيش الاستعمار من الاماكن الخاصة بالقبائل .

٣ ـ صدور عفو شامل عن جميع الافريقيين لبدء عهد جديد تنعم فيها كينيا ببعض أسباب السلام وتتاح فيه الفرصة لاهلها لمزاولة الحياة كغيرها من البلاد .

٤ ـ لاتعين السلطات عن الافريقيين من تريد فى المجلس التشريعى . بل يجب أن يختار الافريقيون من يريدون .

٥ ـ الاختلاط العنصرى فى المدارس .

٦ ـ تصدر الحكومة بلاغا تعلن فيه أن كينيا للافريقيين وأن حقوقهم هى العليا .

٧ ـ منع الصحف الاوربية فى كينيا من سب الأفريقيين علانية .

٨ ـ لايحاكم الافريقى إلا أمام محكمة افريقية ، ويمكن أن يعين قضاة أسيويون فى المرحلة الأولى .

٩ ـ وقف هجرة الاوربيين إلى البلاد.

١٠ ـ تمنح كينيا الاستقلال الذاتى ولا ترتبط فيه ببريطانيا إلا فى بعض

بالشئون العليا . كالدفاع والسياسة الخارجية على أن يكون ذلك تمهيــــدا للاستقلال التام .

ومن أعجب الأمور أن هذه المطالب العادلة المشروعة رفضت أكثر من مرة .



أنشودة

نفخ الصبي في مزماره المصنوع من الغاب ، أنها نغمة حزينة باكية ، وكانت الشمس تؤذن بمغيب وراء الهضبة الاستوائية العالية ؛ ثم وضع المزمار جانباً وحلق في الفضاء . وخرج منه الغناء كأنه زفرات قال :

* وعندما تشرق الشمس وترسل أشعتها الذهبية .
* وتنهض أمي العجوز من كوخها القذر .
* وتتطلع في وجوهنا فتجدها جلدا على عظم .
* وإن الرجل الابيض امتص اطهر دمائنا كالثعبان .
* وتجد الحقل الذى كنا نملكه في يد اجنبي .
* تذرف الدمع بارداً في الصباح .
* كأنه الندى على شجرة جفت أغصانها . .

ومر السيد جارليك بقبعته العريضه وقميصه المبلل بالعرق ؛ كان يلهث لفرط بدانته وما أكل من ارزاق محرمة ، وكانت عيناه تدوران في رأسه وقد أحمر بياضها من فرط ثمله . ثم رفع سوطاً جلد به الصبي على عنقه ووجهه فصاح هذا كأن عقربا لدغته.

وقال الرجل الابيض مالك تغنى أغنية ماوماو ايها الشقى ؟

ثم عززلهجته القاسية بسوط آخر . فانتفض الصبي ونهض إلى تطهير الحظيرة من روث الماشية .

* * *

ومضى الرجل الابيض هنا وهناك يوزع ضربات سوطه والصبح لايزال وليداً . حتى إذا ما اختفى عاد الصبي إلى غنائه والدمع ينهمر على صفحة وجهه.

ويقول :

* وعند الظهر تحرك أمى الاناء فتجده خاويا . .
* وتنظر إلى السادة البيض فتجدهم موردى الخدود.
* أما خدى فهو كهف من جلد وعظام .
* ويسيل الدمع من مآقيها ساخنا . .
* وعند الغروب تنظر امى فى الكوخ فلا تجد غطاء . .
* وتسمع وطء أحذية البيض الغاصبين .
* وتنظر إلى حرابهم اللامعة فى أقفية الرجال .

ثم يسيل الدمع على خديها . .
ويصيح الجميع .. اين بيوتنا ؟ اين وطننا ؟ اين شرفنا ؟ اين كرامتنا ؟
ويجرى الدمع كالسيل على وجنات الجميع .

* * *

وتلفت الطفل حوله فى فزع ، لقد كان صوت آخر يغنى معه الفقرات الاخيرة من نشيده . فرأى ناشا صديقته وجارته وقد جلست القرفصاء وجعلت تمضغ عوداً جافاً من شجرة ذات رائحة . ثم تجرح اللثة وتبصق الدم على الأرض ... ويتضاحك الطفلان فى عبث غريب .

ويخرج من كوخ الجار (همامبا) جد (ناشا) متوكئا على عصاه أنه معمر تجاوز المائة وقد آثروا عنه الحكمة . وليس مثله شيخ يروى لهم قصة الجدود والجدات . وقصص الالهة الشريرة وآلهة الخير .

وربت (همامبا) بيده على رأسى الصبى الصغير ، وقال :

* من علمك هذه الأغنية ياصغيرى العزيز ؟
* انهم « الأبطال »
* أى أبطال تعرف أيها القنفذ ؟
* الا تعرف الأبطال ياجداه؟ الا تعرف كيف يصمدون فى الغابات

وقمم الجبال للجنود البيض ؛ الم تر جثثهم متعفنة فى الاودية السحيقة ؟
ألم تر الغربان وهى تحوم حول الرؤوس المهشمة والاشلاء الغارقة فى بحيرات صغيرة من الدم المتجمد ؟

* وهل علمتك الرمم كيف تغنى ايها العزيز ؟

* الا تعرف أن اى معهم من عشرين يوماً ؟ انه يعود فى حلك الظلام لتعطيه امى قليلا مما جمعته من غذاء . فيحمله إلى « الابطال » فى دياجير الليل . وفى الليلة التالية يأتى غيره إلى كوخ آخر ، فيعطونه ما سكتت عنه امعاؤهم الخاوية . ألم أرك ياجدى تعطيهم تلك الدراهم القليلة التى كانت (ناشا) تقتصدها ؟ الم تبك ناشا طول الليل حتى حملتها إلى كوخنا لتنسى ؟

واسرع الشيخ اليه فى قفزة يعز عنها الشباب ووضع يده على فمه صائحا « اسكت ايها الابله .. اسكت ، فان فى العمر بقية أريد أن احياها خارج قضبان السجون . . »

وسكت الصبى وطأطأ الشيخ رأسه وشرد ذهنه ملياً ...
وسألته ناشا فجأة : لماذا اصبحنا خدما واصبح البيض سادة ياجداه ؟
واعتدل الرجل فى جلسته ، وقال انا لسنا خدما ولكنا جنود الجيش الذى خسر المعركة .

وقال الصبى : اى معركة ياجداه ؟ أن القتال مازال دائرا فى الغابات
ـ أى بنى ، أن لهذا قصة طويلة . فقد كنت فى مثل سنك عندما بدأت الكوارث تترى على بلادنا ، وكان ذلك منذ نحو تسعين عاما ، ولكنى مازلت أذكر تلك الأحداث كأنما وقعت اليوم .
وقالت (ناشا) مداعبة لقد أصبحت قصتك قديمة ياجداه ! !
وقال الصبى ولكنى لم اسمع منها شيئا .
وأحس الجد المعمر بأن أمامه عميلا جديداً يريد الاصغاء ، فعلت شفتيه

بابتسامة الرضى .وقال :

كان يحكم زنجبار ، الجزيرة الكبيرة القريبة من شواطئنا .. (فقاطعته تاشا مكملة (ملك مسلم يسمى برقش) فلكزها الجد لكزة شديدة بيده فقالت محتجة لقد حفظت هذه القصة ياجداه .

قال الشيخ المعمر إما أن تسمعى فى صمت .. أو تقومى من هذا المكان.

واقترب الصبى منه ووضع يده فى حنان على رأسه . . وقال أكمل ياجداه .. انها سخيفة دائما .

ولزمت الصبية الصمت . وقال الشيخ .

« ملك مسلم يسمى برقش .. وجاءته فى يوم ما سفينة بها جماعة من التجار الانجليز ، ونفحوه مالا وخرزاً ملوناً ، وريش نعام ومرآة كبيرة لخيمته الملونة ، وعصاة سحرية قالوا له انها تخرج النار» ولكنهم لم يكونوا يعطونه فحمها الاسود المسمى البارود ، الا بقدر معلوم ، حتى قلبوا عقله.

وقالت الصبية محتجة .. انك لم تذكر العصا النارية ياجداه الا هذه المرة .

وضحك الشيخ عن فم ليست فيه سنه واحدة ، ثم قال « واغرى هؤلاء التجار الملك واقنعوه بانهم سيعاونونه على ضم اقطار شاسعة غنية بمحصولها وفاكهتها إلى سلطانه . فصدق ماقالوا ، وجند رجاله لمحاربة القبائل وإخضاعها على الساحل الشرقى لبلادنا .. وكان البيض يناونه بعصيهم النارية فيسرع اجدادكم إلى التقهقر فزعاً » .

وكانت وراء الملك الافريقى المسلم شركة انجليزية تنفق عن سعة وتنثر الذهب والخرز الملون بين الزعماء . حتى إذا ما استقر بها الأمر ولم تعد تخشى ثورة أو تمرداً ، واعملت السياط فى ظهورنا جاء وفد رسمى بريطانى وأقام الاحتفالات واطلق الصواريخ فى الهواء . وكنا نتساءل عن سبب

بهذا كله فيقال لنا هنيئاً لكم فقد اصبحتم من اليوم (تحت حماية) بريطانيا أعظم دولة فى الوجود ! !

وتلفت الشيخ حوله يترقب .. ثم قال . .

وبعد قليل وصلت افواج من الجنود الحمر الوجوه ، كانو اجمل من فتياتنا فتحبب اليهم كثيرون من أهل البلاد وهجر كثيرون بيوتهم وأقاموا من أجل الشبان الحمر الوجوه فى المعسكرات وجاءوا بقضبان من الحديد ومدوها من الساحل إلى الداخل. وجاءوا بقطارات لم تكن معروفة حينذاك فكان السحرة يتعوذون منها ويقولون انها آلهة الشر جاء بها البيض معهم ولا أكتمكما انى كنت شديد الفزع . فاقتربت من القضبان يوماً وخيل إلى أن القاطرة تمد ذراعها نحوى لتجتذبنى إليها . وأسرعت إلى اكواخنا أروى النبأ فتناقلوه بسرعة . واصبح واقعة يقسم كل من الشباب بأنه رآها بعينيه . وتطوع المتفاخرون فقالوا انهم انقذونى من براثن هذا الوحش الجديد ، بعد معركة دامية .

وقال الصبى : أكنت عبيطاً الى هذا الحد ياجداه ؟

ولطمه الشيخ المعمر على وجهه بيده الواهنة ، وقال ان القبائل تذمرت وبدأوا يخرجون القضبان عن مواضعها . ويضعون القضبان فى الطريق فاكتشف البيض وسيلة للقضاء على هذه المقاومة ؛ اتوا معهم بزجاجات ما كاد شبابنا يشربها حتى اقبل عليها وأتوا بفتيات شقراوات ذوات عيون زرقاء وشعر ذهبى وملأوا بهن الحانات . فانصرف الشباب إلى الزجاجات يفرغونها فى أجوافهم فتملأ رؤوسهم الصغيرة أفكاراً تتعلق بالفتيات. ودب دبيب الفساد وطارت القوى . ولم يعد فى القبائل رجل إلا وهو يفكر فى شىء واحد . . . العاهرات البيض والخمر .

وقال الصبى ذو اللسان الطويل وهل كنت من هذا الفوج الفاسد ياجداه؟

قال المعمر « غفر الله لنا جميعا .. فان الخمر والفساد ضيعا بلادنا .. ولكن .. اسكت ايها الارنب الصغير ولا تقاطع ، فان جدك يريد أن تذكر الأيام الخالية ، وأن تحفظ هذه القصة لترويها للاجيال القادمة .

وقال الصبي . وماذا كنت تعمل ذلك الحين ياجداه ؟

قال الشيخ الفاني : كانت زوجتي شابة صغيرة . وكانت ابنة أحد الامراء وقد حظيت بالزواج منها بعد جهد شديد فكنت حريصاً على التزام الدار .. وكانت دارنا مبنية بالحجارة وحولنا اكواخ الرعاة والفلاحين في سفوح الجبال ... وفي يوم ايقظنا صهيل الخيول عند الفجر « ونظرنا فاذا بآلاف من الجنود والفرسان يحاصرون قريتنا . وعلى مرمى البصر رأيناهم ينزعون علامات الحدود في الحقول . ثم يفتشون عن وثائق الملكية ويأخذونها معهم . يدعون تسجيلها من جديد . وما مضى على ذلك وقت كبير الا ورأيناهم يعودون إلى حصار ثان من جديد .

وقاطعته الفتاة الصغيرة : متى كان ذلك ياجداه ؟

قال اني أذكر هذا جيدا يا افتاتي الصغيرة . كان هذا في سنة ١٩٠٢ أي من نحو أبعة وخمسين عاماً . فقد ولد أبوك في ذلك العام .

وترقرق الدمع في عيني الفتاة الصغيرة ، وقالت لقد قتلوه ياجداه بدون جريرة ؛ سألوه عن ماوماو فرفض ان يفضي بشيء فظلوا يجلدونه في ساحة القرية إلى ان مات ، ألم تره قبل أن يموت ياجداه أنه كان يصيح «ماء ... ماء» يطلب الشرب والجندي الاحمر الوجه يركله بقدمه في رأسه ويدميها الى أن لفظ أنفاس الاخير ؟

واطرق الشيخ المعمر ، وقال في صوت مختنج .. كنت على سفر يسير ياصغيرتي العزيزة ... ولكن « الابطال انتقموا له ، فعلى مقربة من مقتله رأينا الاحمر الوجه الضخم الجثة معلقا في جذع شجرة ثم مسح الشيخ عينيه بيده

وقال الصبي أن « الابطال » لايبكون ، وقدحظروا علينا البكاء ، وقد صفعني أبي عندما ودعني يوماً وتشبثت به أن لايذهب . وقال لي أن الدموع للنساء ، وان الجهاد للشباب والرجال .. اكمل ياجداه قصتك ...

قال الجد . وهدموا الأكواخ بسرعة مذهلة للعقول ، ونقلونا في سيارات كبيرة وعربات تجرها الثيران إلى بلاد بعيدة وقالوا أن مساكننا على سفوح الجبال وقممها في جو معتدل يلائم البيض ، ولهذا يجب ان ننزل إلى الوادي ونخلي لهم مواقعنا .

وقاطعه الصبي قائلا .. ومزارعكم وماشيتكم ياجداه ؟

قال الشيخ : لقد صادروا كل شيء .. واعطونا أوراقا وخرائط فيها مزارعنا الجديدة وأكواخنا ، فوجدنا أرضنا قاحلة ، وماشية هزيلة ، وخياماً مهلهلة لاتقي المطر ولا الحر اللافح .

ورأيناهم يجنون الثمار من اشجارنا ونحرم نحن اصحابها منها ويحصدون الحبوب والخضر من حقولنا ويختصون بها أنفسهم دوننا ، حتى ثرنا وهاجمناهم أكثر من مرة في دياجير الليل فكانت عصيهم النارية (البنادق) تقضي علينا فركبنا الهم واليأس ، وتحولنا من مزارعين أثرياء إلى رعاة . لاطعام لنا إلا لبن تلك الأبقار والنعاج الهزيلة الواهنة.

وقاطعه الصبي : ولماذا لم تكافحوا كفاح أبطال اليوم ياجداه ؟

فقال الجد كنا يداً واحدة على البغاة ، وكانت قبيلة مازاي اقوى حلفائنا وأكثرها عدداً ، ولكن نصفها تخلى عن المعركة من اثنين وخمسين عاماً ، وتخلى النصف الثاني من خمس وأربعين سنة ، وتركونا نواجه الجنود الحمر الوجوه اعواما إلى أن افنت الأوبئة والرصاص الاجنبي أكثر من نصفنا ، فانتهى أمرنا إلى التسليم والعيش في خنوع كالنعاج .

وقال الصبي : ولكن لم كنتم كالنعاج ؟

فقال الشيخ المعمر ـ وجد البيض ذهبا فى (لوبا) فتألفت منهم شركات جعلت تعطى الافريقى أضعاف ما كان يجود به ايراد الرعاة عليه . وتعلم الافريقيون الخمر وتعودوا احضان نساء المواخير ، فازدحمت بهم المناجم فنقلوا افواجاً منهم فى عربات كالماشية إلى مزارعهم فسخروهم فى فلاحة حقول كانت ملكا لهم قبل ذلك بسنين ، وانتشرت بيننا البعثات الدينية فنسينا آلهتنا والسحرة وحكمة زعمائنا . وتعلمنا حروفاً ولغات كنا عليها دخلاء . وفقدنا كل اثر للقومية إلى أن زالت معظم بلادنا ، واصبحنا جزءاً مما يسمونه « الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس »

فقالت الفتاة .. انك حكيم ياجداه اليوم . تنطق بالفاظ لاعهد لنا نحن الصغار بها ، فما معنى الأمبراطورية ؟

قال الشيخ المعمر ان الأمبراطورية يابنتى الصغيرة مجموعة من البلاد التى يمتص الاجنبى دماء ابنائها . ويسخرهم ليجمع موارد بلادهم ويقذف بها إلى عاصمة تلك الأمبراطوريه فيعيش الاجنبى فى أرض ليست أرضه ولا أرض اجداده ، ويحيا صاحب الارض حياة الذلة والمهانة ، ويصبح السيد عبداً والمتسولون واللصوص المنفيون من بلادهم سادة ، هذه هى الامبراطوريه فهل فهمتها ؟

ونظرت اليه بحدقتين متسعتين ، وقالت لم أفهم بعد .

قال انك حمارة مثل جارك الصغير تماماً ، الامبراطوية أرض واسعة تتحكم فيها قلة من الناس فتستبيح دماء السكان الأصليين وأموالهم واملاكهم وتعدم من تشاء ؟ وتفقر من تشاء ، وتجلد من تشاء ، وتنزع الأرض ممن تشاء . هى الظلم المسلط على الرقاب . ومن هذه الكلمة اشتقوا النظم « الامبريالية » ومعناها بلغتنا نحن النظم الاستعمارية .

وعادت الفتاة تقول انها لم تفهم ، فقال ان الأمبراطوريات المختلفة التى

تمتص دماء الشعوب عصابات مسلحة رسمية ، تتخذ لنفسها ألقاباً وهى أول من يخرج على القانون ، وتدعى الدفاع عن الحقوق والحريات وهى أول من يستهين ويعبث بها .

وعادت الفتاة تقول انها لا تفهم ، فركلها برجله ، وقال ... وكيف تفهمين وأنت مازلت بلهاء ، لابد من أن يجاوز عمرك المائة حتى تدركى معنى ما أريد ، مثل جدك ايتها البلهاء .

وشرد ذهنه لحظة ثم قال .. ولولا انى اقرأ الصحف وغيرها لما استطعت أن أفهم شيئا مما اقوله لكما ولغيركما . وهذا درس لكما ، فتعلما .. ان الكسل والقعود عن الدرس لا يفيد .

ثم نهض الشيخ المعمر من مكانه وجعل يروح ويجىء وقد اشتبكت يداه وراء ظهره . فقد عاد اليه إحساسه المرير القديم بانه ولد ليكون سيداً حراً ، ولكن الاستعمار أحاله رقيقاً يفلح أرض غيره .. ويجهد النفس من أجل الاجنبى .

* * *

وجاءت أم الصبى تترهل فى بدانتها وكأنها ستسقط كسفاً على الأرض كانت تحمل خبزاً أسود وطعاماً ، فادرك الصبى وصديقته انها اعطيت غداءها فوفرته ليأكلاه معها . وأسرعا اليها فاقتسمته بينهما ، ودخلت الكوخ فأكلت خبزا قديدا ، ثم شربت قليلا من الماء لينتفش الخبز وتمتلىء البطن الجائعة .

وقال الصبى :

ـ هل غسلت كثيرا يا اماه ؟

ـ لم نغسل فقط ، بل الزمونا بمسح بلاط الفيلا كلها ، أكثر من عشرين حجرة وبهوين كبيرين وطرقات ، وجاء رئيس الخدم الجديد ، وهو أبيض

وفى يده سوطه فوزع على ابدانها ما أراد . ولكنى نجوت هذه المرة لأنى اسرعت اليه أروى له حادثا مختلقاً عن ذكاء ابنته التى جاءت لزيارته اليوم.
وضحك الصبى وقال لأمه « يالك من خبيثة » .
وكان نصيبه لكزة صغيرة من يدها ؛ ثم ضحكت

* * *

وامطرت السماء مدراراً ، واظلمت لاكفهرار الجو وتكدست السحب طبقات ، وبدأ الرعد والبرق ففزع الصبى وصديقه ودخلا الكوخ وبعد قليل لحقت بهما أمه مبللة الثياب .
وقال الصبى انه مازال جائعاً

وأخرجت الام بيضةوسلقتها له، ولكنها اشفقت على الصبية فقسمتها بينهما عدلا . وبدأ الطفلان يأكلان وصوت الخبز القديد بين اسنانهما واضح عال ، وإذا بالباب يفتح رويداً رويدا ، فكان له أنين خشن كانه عواء كلب جرح .

وانتفضت الام واقفة وفى يدها هراوة . واسرع الصبى وصديقته إلى ركن فتكور جسماهما وزاغ البصر وارتعدت الايدى والارجل ،وصاحت المرأة من بالباب ؟

ثم شاهدا يداً سوداء تمتد إلى الداخل ، وقدماً سوداء تتبعها وحبس الفزع صوت المرأة كانها فى كابوس ، وظهر وجه اسود له شفاه غليظة وشعر حليق فصاح الصبى «أبى» واسرع الى الباب فاغلقه الرجل بعنف .ووضع يده على فم ابنه حتى لايسمعه أحد .

واسرعت المرأة إلى زوجها تحتضنه وتبكى فى صمت ، وتقول نحمد الله انك مازلت سليما معافى فقدم اليها كيسا كان يحمله ، وفتحته المرأة فى لهفة لأن الرجل لايعود إلى بيته خلو اليدين ابداً ، رغم الاخطار التى

يتعرض لها مع رفاقه المجاهدين فى الغابات .

وأخرجت المرأة مافى الكيس فظهر أنه أرنب برى من ساكنى الغابات فاسرعت المرأة إلى سلخه ، وأرادت ان توقد ناراً فمنعها . وقال أن رائحة الشواء تثير اهتمام الناس . وأنه جاء ليرى أبنه قبل أن يخوضوا غمار المعركة فى الغد ، وبكت المرأة بكاء مراً وقالت .. قد يكون هذا آخر يوم نراك فيه ؛ فكل معنا شيئا ، ورضخ الرجل الامر وقد اغرورقت عيناه بالدمع وهو ينظر إلى ابنه .

وقالت المرأة انى سأسلقه حتى لا يشم رائحته أحد ؛ واوقدت النار ثم اتخذت اهبتها لسلق الصيد السلمين .

وانصرف الرجل إلى الاجابة على عشرات من الأسئلة ؛ كان بعضها من ولده والبعض الآخر من صديقته الصغيرة ، إلى أن اعد الطعام فوضعت الأم لوحة من الخشب على الأرض وضعت الخبز القديد وقطع اللحم . وبدأوا يأكلون .

وسمع وقع أقدام فى الخارج ؛ ثم طرق الباب طرقاً شديداً فقطعت لقمة الخبز الجافة من يد الرجل . وأسرع إلى ركن الحجرة ليختفى وراء اكوام من الأعشاب الجافة التى تصلح للوقود ؛ وإذا بالباب يحطم ويدخل ثلاثة من الجنود الحمر الوجوه . كانت عيونهم تقدح شرراً وقد شرعوا فى ايديهم البنادق السريعة المشرعة الحراب .

وسألوا المرأة بلغة قبيلة كيكويو « اين زوجك ؟ » فقالت انها لم تره منذ شهر .

ولكن عينى الصبى اتجهتا فى قلق صوب مخبأ ابيه فعرفوا امكانه واخرجوه منه وأسرع أحدهم إلى الزوجة فصفعها صفعة كادت تخرج عينى المرأة من جمجمتها .

ونظر جندى فى وجه الطفل فوجده ممسكا بقطعة من الارنب . فتقدم صوبه وانتزعها منه وجعل يقول فى عصبية : تأكلون الارانب ونحن نأكل « تعيين » الجيش الجاف من اسابيع .. فاصوليا .. سردين .. بولبيف ..

ولكن الطفل كان أسرع منه واذكى . فاختطف القطعة منه . فأسرع اليه الجندى وركله فى بطنه ركله اسقطته . يتلوى على الارض . فقفز الاب فى لحظة واصبح فوق الجندى . وانتزع منه بندقيته وأدرك الجنود الآخرون ان زميلهم ميت لامحالة . فأطلقوا مدافعهم الرشاشة على الأسرة كلها فسقطت مضرجة بالدماء .

وكانت قطعة الارنب قد سقطت بجانب الطفل وهو يلفظ النفس الأخير ، ويبدو أنه أراد التشبث بآخر شىء كان له فى الحياة فقد زحف على الأرض الى أن أصبحت فى متناول يده فاخذها وإذا بالجندى الأول الذى كان ينازعها اياه يطأ يد الصغير بحذائه الثقيل ، حتى كاد يسمع عظام الطفل وهى تسحق .

وأن الصغير انينا ضعيفاً ولم تفلت قطعة اللحم من يده . ثم فتح فمه وشهق شهقة صغيرة سريعة وصعدت روحه البريئة إلى خالقها .

وخرج الجنود ليكتبوا تقريراً عما حدث . قالوا فيه انهم دخلوا لاعتقال الرجل فهاجم احدهم وانتزع منه سلاحه . وأوشك ان يقتلهم به وأن الزوجة والابن ساعداه فى ذلك . فاضطر الجنود إلى قتلهم جميعاً .

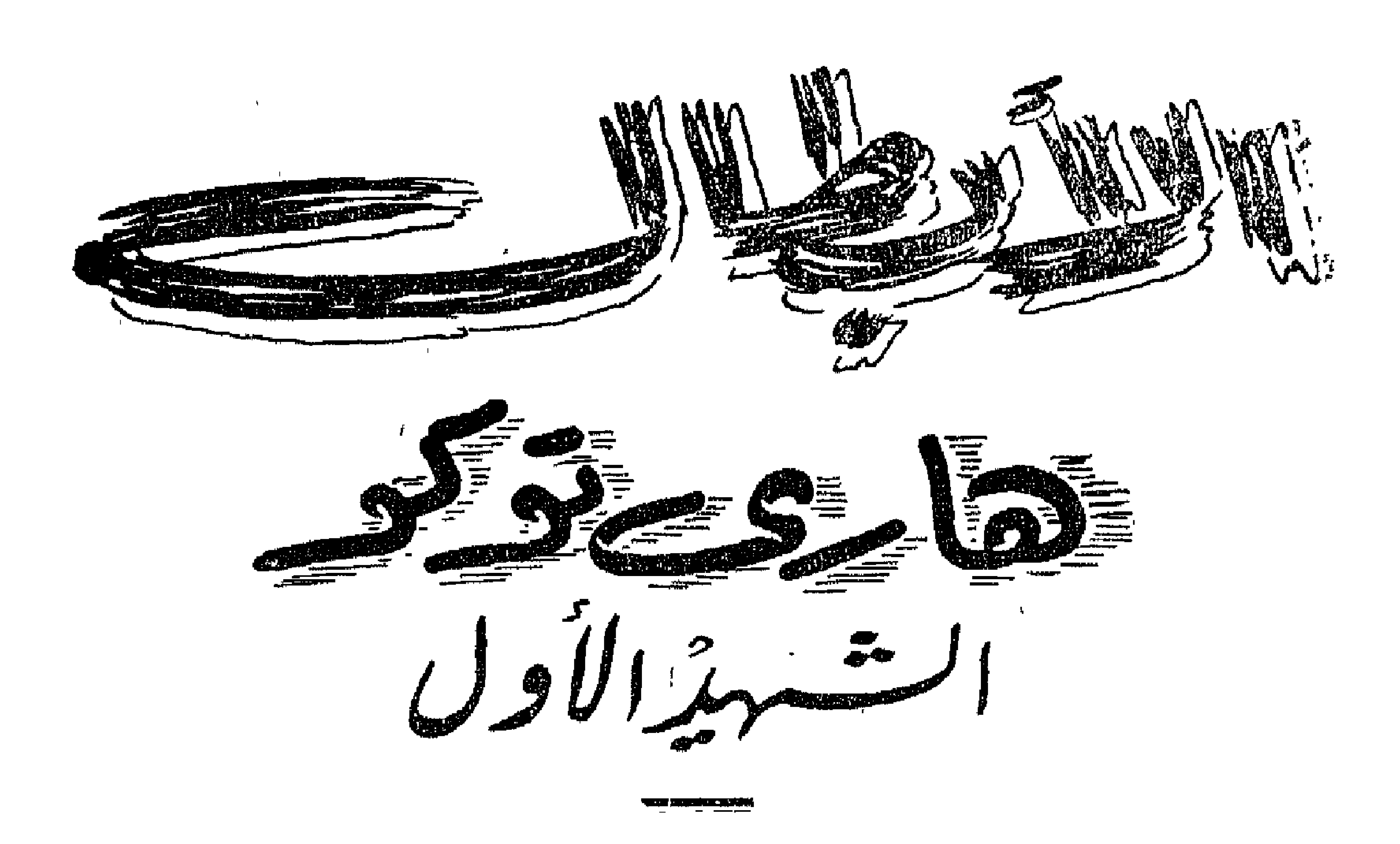
وجاءوا بمصورى صحفهم ووضعوا فى يد جثة الزوجه سكيناً كبيرة . ووضعوا فى يد الزوج حربة الجندى . وانتزعوا قطعة الأرنب بقوة وعنف من يد الصبى الميت ووضعوا مكانها مدية .

ثم التقط المصورون لهم صوراً كتبوا تحتها فى الصحف «القضاء على عصابة خطرة ... الزوج والزوجة وابنهما كادوا يقتلون جنود

الامبراطورية فى كوخ »

وصدق العالم كله أن الاسرة ماتت معتدية آثمة . وانها كادت تفتك بالجنود الشجعان !!





في ظل شجرة باسقة ، على حافة مجرى ماء ممتد من قمة جبل كينيا إلى سفوحه ، ثم إلى الوادى ، جلس الشيخ واكوما يتحدث عن الايام الخالية. وكثرة « الخير » ووفرة عن اللحم ، ايام أن كانت الأرض العالية الخصبة على سفوح الجبل لاهلها . أى الافريقيين .

وقال ابنه الشاب ما كيرى إن « أيام زمان » انتهت . وان الايام الحالية أيام كفاح . وانه لابد من الجهاد لاسترداد الحقوق وأن الحديث عن العهود الخالية وخيراتها لايجدى شيئا .

ثم ربت على كتف ابيه الشيخ وقال :

ألا تحدثنا ياابتاه عن الابطال الذين بذلوا دماءهم من أجل جيلنا الحاضر ألا تحدثنا عن الشهداء الذين ارتوت الارض بدمهم الزكى؟ ألا تحدثنا عن أولئك الزعماء الذين حاربوا بنادق الانجليز ومدافعهم بالمدى والحراب ؟

وسكت الشيخ قليلا ، وترقرت عيناه بالدمع السخين ، وقال لأبنه :

ـ لقد طالما رجوت ربى ان يكون لى ولد كبير . أحدثه ويحدثنى . حتى إذا ماحقق الله لى الرجاء ، رأيتك بالقضايا السياسية عنى لاهيا ؛ يابنى . . ان الطريق وعر شاق .. والجهاد آخر الاعدام أو السجن .. أو الاستشهاد فاعزف عن هذه الطريق أن كنت تروم الحياة ..

ـ غريب منـــك أن تقول ذلك .. وانت تحدثنى كل يوم عن سير الابطال فى الغابات .. وجـــرأة الفدائيين .. الذين ينقضون على مزارع البيض فى دياجير الليل ..

ثم تشابكت يده ويد أبيه . ووقف الرجـــل .ووضـــع راحتيه على كتفى ابنه . ثم قال :

ـ سر يابنى فى طريقك .. فما انت خير ممن ماتوا .. ولا انت أفضل ممن فى السجون أو المنفى .. ولا بد لشجرة الحرية أن تروى بدماء طاهرة ودموع الذين يسلبون الحرية وراء قضبان السجون .

وأخذ الشيخ بيد ابنه ، وقال وهو يهرول فى مشيته « تعال لاريك شيئاً »
ومشى الشاب والشيخ قليلا حتى بدأ سفح الجبل فى الارتفاع . فوجدا كومة كبيرة من الثرى ، وضعت عليها الاحجار بعناية .. وكتبت عليها لوحة تقول « هنا يرقد الشهيد الاول .. هارى توكو »

وقال الصبى ويده ترتعد فى يد ابيه .. من هو توكو ياابتاه ؟
قال الشيخ « أجلس ولنصل أولا »
ثم رفع عينيه إلى السماء . ويداه متشابكتان . وتضرع إلى الله أن يريه يوماً يشاهد فيه جنود الغاصب وقد جلوا عن البلاد .
كانت صلاته همساً . ولكن ابنه كان يفهم كل كلمة يقولها ابوه . . فامسك بيد الشيخ والدمع يترقرق فى عينيه القويتين وقال « آمين »
قال الشيخ :

« خرج الانجليز من الحرب العالمية الاولى وكلهم زهو وغرور ؛ فقد أطاحت برؤوسهم خمر النصر ، فظنوا أنهم ملكوا كل شيء فى الوجود . وقسوا فى معاملتهم لقبيلة كيكويو وغيرها من القبائل الافريقية الاخرى ؟

« وفى ١٩٢١ انصت القادة الانجليز الى كبار الاوربيين والملاك البريطانيين ووضعوا مشروعاً لتخفيض الحد الادنى لاجور العمال السود رغم قلتها وهذا غير الضرائب التى كانوا يفرضونها على الرؤوس سواء كانت رأس قادر على العمل أو متعطل أو رجل مكتمل القوة ؛ أو طفل ؛ أو مريض لاحول له ولا قوة »

« وكان عمل السود فى ذلك الحين اشبه بالسخرة . فاذا اخرج عامل افريقى بدون اذن صاحب العمل اخطر هذا البوليس . فيبحث الجنود عنه الى أن يردوه لسيده رغم انفه ، فاذا لم يقبل سجنوه ! »

« كل هذا كان محتملا ؛ ولكن الامر الجديد الذى أثار الافريقيين هو ذلك الامر المشين الذى يلزم النساء والفتيات الافريقيات بالعمل فى مزارع البيض سواء كان صاحب المزرعة اعزب أو متزوجاً . فاسقاً أو صالحاً ولم تكن للاعراض فيه عند البيض ؛ فثار الافريقيون لهذا الأمر واصبحوا فى شبه ثورة . لم ينقصهم سوى زعيم »

وكان هارى توكو موظفاً فى إدارة التليفون . متعلماً يقرأ الصحف المحلية ومايرد من الخارج . وكان على علم بكثير من النظريات الجديدة فى الخارج فخطب فى بنى قومه . وقال لهم انه لاحياة مع الذل والهوان فخرجوا فى مظاهرة كبيرة حوله .

وسكت عنهم الجنود ؛ وفرقوهم بالحسنى تارة وبالاسلحة تارة أخرى ثم نقلوا هارى توكو وهو نائم واعتقلوه ؛ وما كاد رجال قبيلة كيكويو ونساؤها يدركون ذلك حتى تجمعوا أمام السجن . فاصطدم بهم الجنود

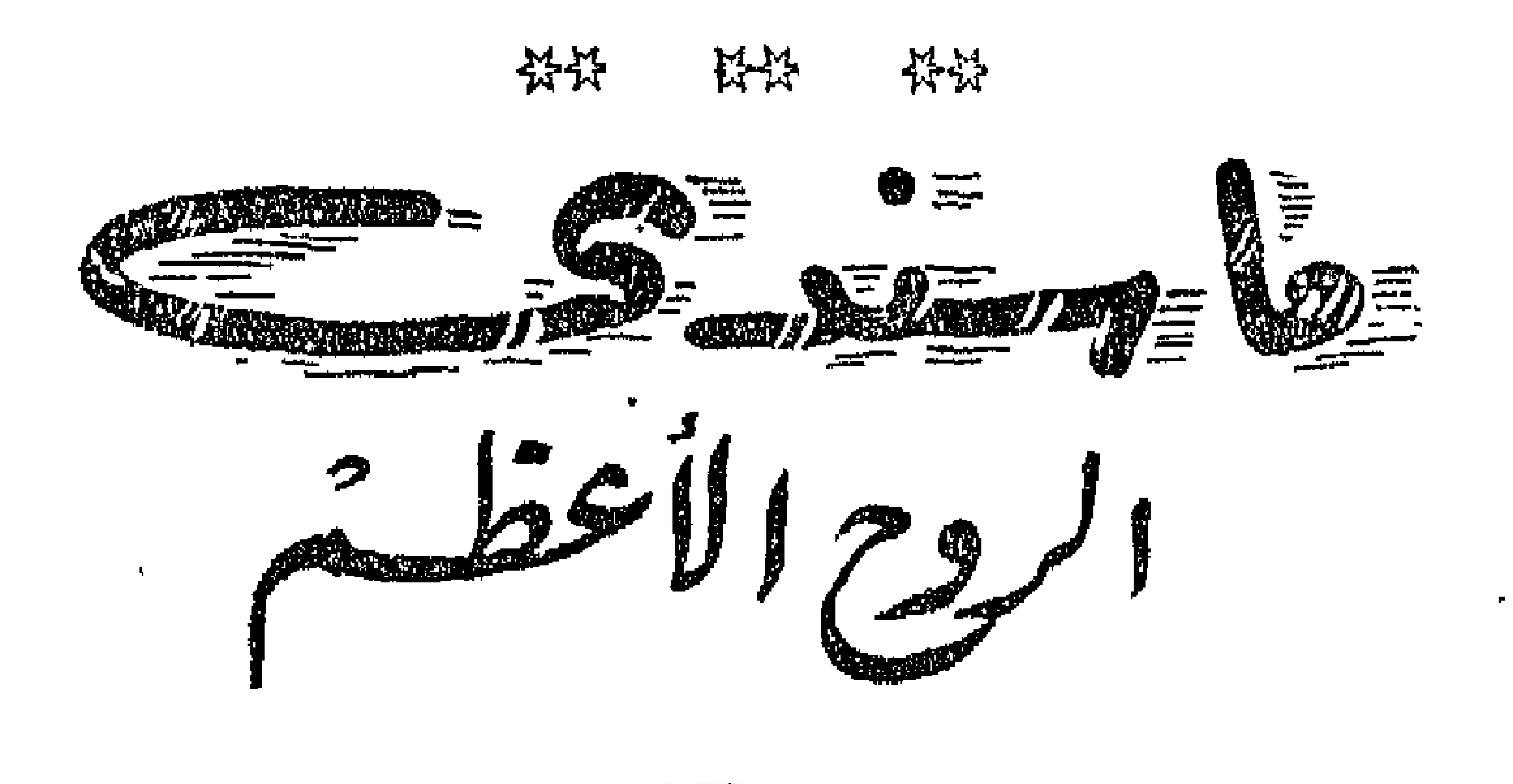
الانجليز بعد أن طلقوا النار عليهم بدون انذار »

« ويقول البلاغ الرسمي الذى صدر فى ذلك الحين ان القتلى من الافريقيين بلغوا ٢٥ قتيلا وجرح مئات ولكن الواقع كان اضعاف هذا ثم اعتقل الانجليز الألوف ونفوا توكو من البلاد .

وبعد حين رجع توكو فناضل وجاهد ؛ إلا أنه مات بسبب مجهول . فمن قائل أنهم دسوا له السم . ومن قائل أنه مات ألماً وحسرة . وهذا هو يابنى قبره . ويزوره كل عام ألوف من رجال القبيلة لتخليد ذكراه)

وتشابكت يد الشيخ والإبن مرة أخرى . وانصرفا إلى حيث كانا فى هدوء مطأطئ الرؤوس فى حزن وغم .

*** *** ***



وعاد الشيخ والشاب إلى جلستهما السابقة . فقال الإبن . . .
هل وقف الجهاد عند موته ؟ وهل سبق رجال ماوماو أبطال غيرهم ؟
فقال الشيخ متذكراً جهل ابنه . . .
« ألا تعرف يابنى ماسندى . . . الروح العظيم ؟ »
قال الشاب إنى سمعت عنه الكثير . ولكن العامة يخلطون بين التاريخ والخرافات . ويحيطونه بكثير من الأساطير .

قال الشيخ . . يا بنى انه كان يعيش إلى زمن قريب . وكثيرون

يؤمنون بأنه مازال حياً لم يمت . . وأن قصه مونه ليست صحيحة وأنها من اختراع الانجليز . . ولهـــذا يقولون دائما سيعود « الروح العظيم يوما لينقذنا من هذا البلاء »

ثم قال : ولكنك لا تستطيع أن تعرف شيئاً هاماً . هو أن ماسندى لم يكن إلا ظاهرة لمذهب فلسفى قديم . فعندما نزلت البعثـــات الدينية فى بلادنا علمت السكان أنه ليس فى الوجود إلا اله واحد ، وأن الآلهة الوثنية القديمة لا تجدى ولا تفيد بشىء . ووعى المتنورون ذلك وفهموه . ولكنهم رأوا فى الدين الجديد ، وفى اختلاف مذاهبه باختلاف الارساليات الدينية المختلفة ، إن هناك أشياء لا تستسيغها عقولهم . وأراد بعض المفكرين أن يقتصروا على عبارة الروح الأعظم وحده . أى الله . ويقال أنهم اشتقوا لهـــذا الدين الجديد ، أو هذه الفلسفة الجديدة إسماً من اللغة العربية هو « دينى ياروحو » أى دين الروح الاعظم . وليس هذا مستبعدا لأن العرب منتشرون بيننا . ولهم كتاباتهم وصحفهم ومدارسهم فى شرق أفريقية

قال الشاب : هذه أول مرة أسمع ذلك التفسير الجديد

فقال الشيخ : لا تقاطع . . وكان طبيعياً أن تتفرع من ذلك فلسفة أخرى طبقاً للظروف السياسية ولاضطهاد المستعمرين لأهل البلاد . فقد تحول هذا المذهب إلى السياسة . وقال أصحابه اننا جميعاً أمام الخالق سواء فلايعرف لوننا أسود ولا أبيض . ولا أفريقياً أو أوربياً ولا عظيما ولا وضيعاً . وهو لا يقدر الناس إلا بآرائهم وأعمالهم . ولهذا وجب أن نكون أحراراً كما ولدنا أحراراً وأن نأخذ حقوقنا كما اغتصبت منا وأن نحطم معابد الظلم ودور الطغيان كما نظف السيد المسيح معابد بيت المقدس من المرابيين والمرائيين

وفزع الانجليز لهـــذا المذهب الجديد لأنه وثيق الصلة بالدين ، وانتشر

انتشارا سريعاً مخيفاً . وتزعمه رجل عظيم الاقناع . قوى الأسلوب جذاب في حديثه ومنظره . له هيبة ووقار . إسمه ماسندى .

ونهاه الانجليز عن التحدث فى السياسة فأبى . وقال انه ليس سياسيا ولكنه يتحدث عن آلام شعب . وعن حقــوق مغتصبة . وعن وعود نكثت . وعهود مزقت .

واشتدوا فى معاملته فتمرد . ورفض دفع الضريبة وأمر أعوانه بأن يحذوا حذوه ففعلوا . فحكموا عليه بغرامة كبيره فرفض أن يدفعها وقاوم رجال الضرائب والجنود المرافقين لهم .

وفى سنة ١٩٤٥ حكموا عليه بالسجن سنه بتهمة تحريض الشعب على مهاجمة البوليس . ثم نقــلوه من الامراض العقلية فى (ما نازى) بدعوى أنه معتوه .

ولكن الاطباء ـ رغم أنهم انجــليز ـ لم يستطيعوا أن يقرروا أنه مخبول العقل . فأطلقوا سراحه .

وثارت القبائل بزعامته وطلبو جلاء الانجليز عن كينيا وأن يحكم البلاد زعيم أو ملك أفريقى . لأن الافريقيين أصحابه الحقيقيين وأصحاب الحق الاول فى حكمها .

وفى سنة ١٩٤٧ عقد مساندى أول وآخر مؤتمر شعبى أفريقى . حضره أكثر من ١٥٠ ألفاً من أقطاب القبائل والمسلمين فى البلاد ، وألقى خطابا عظيما عن حقـوق الشعب وفظائع الأوربيين . فجاء رجال الامن يريدون فض الاجتماع فأبى مساندى ، وكان الجنود يحيطون الاجتماع بقوات كبيرة تختفى فى أماكن بعيدة فما كاد الأمر يصـــدر اليهم حتى خرجوا بأسلحتهم الرهيبة وحاصروهم . وأطلقوا عليهم النار من كل جانب

ووقف مساندى وقال : أنه كان قد اختار هذا المكان للاجتماع لأنه

الساحة التى استشهد فيهـــا كثيرون من أبطال قبيلة كينوش من سنوات ولـكن يبدوا أن المأساة ستتكرر اليوم فدافعوا عن أنفسكم وموتوا رجالا .
وبعد أن قتل الانجليز منهم عدداعظيما نصحهم مسانَدى بالتفرق فتفرقوا

ثم بقى مع نفر من أعوانه وجمع جثث الشهداء والجنود يحيطون بهم من كل جانب . وصلى عليهم وقال انه لا يعرف متى سيموت . . وهـذا سيصلى على شهداء المستقبل أيضا ويطلب لهم الرحمة من الله . فكانت أول صلاة عن شهداء المستقبل فى التاريخ . ثم أعلن بصوت يدوى قوة وجرأة أن الـكفاح سيستمر إلى أن يخرج الانجليز من كينيا ، مزارعين وسياسيين وجنود احتلال .

وظل البوليس يراقبه فى كل مكان نزل فيه . وثار النـــاس وهاجموا مركز البوليس فى سوق مدينة « فالاكازى » ونشبت معركة كبيرة . وجرح مدير البوليس فى رأسه ونقل إلى المستشفى .

وكان جنود الاحتلال قد سألوا عنه حتى عرفوا أنه فى دار مع فريق من أنصاره فأحاطوا به . وخرج اليهم يسألهم ماذا تريدون ؟

ورفع اعوانه بنادقهم وحرابهم يريدون الذود عنه فأمرهم بأن يلزموا الهدوء
وقال الجنود إنه هدفهم . فإما أن يستسلم أو يقتلوه وأصحابه. فالتفت إلى رفاقه وقال انه كان يدعو إلى الجهاد من أجل الوطن . ولـكنه لا يريد أن يسفك دم أحد من أجله . وسلم نفسه . وأوصاهم بأن يواصلوا الـكفاح

وازدادت الحوادث عنفاً . وخلفه لوقا بـكيش فى الزعامة ووعد الذين يستشهدون الجنة . وكان رجال القبائل يعتقدون أنه رجل معجزات .

ولـكن جنود الاستعمار كانوا له بالمرصاد فغافلوا حراسه وأحاطوا به يوما ومعه ٤٠ من رفاقه وحدثت معركة بل مذبحة . كان السلاح فيها هو البندقيه ضد الحربة ، وانضم إلى بـكيش فريق آخر من المجاهدين . وقتل

الانجليز ٢٩ أفريقيا وجرحوا ٦٠ (كما يقول بلاغ رسمى) وقتل ثلاثة من الأوربيين المسلحين وجندى بوليس . واستشهد بسكيش فى المعركة .

وخمدت الحركة زمنا والناس يعتقدون ان مساندى سيعود يوما ليقودهم الى النصر . حتى جاءت حركة ماوماو فأحيت الآمال من جديد .





نحن الآن فى عام ١٩٠٤

كان الاب رجلا فقيراً يكاد يكون معدماً . وعانت الأم آلاماً مبرحة إلى أن وضعت طفلا ذكراً .

وجاء رجال قبيلة كيكويو يهنئون الاب بما رزق ، فكان يهز رأسه أسى ، ويقولون له سيكبر ويعاونك فى جمع موارد الرزق. فيقول لهم ساخرا ولكن تربيته إلى أن يبلغ هذه السن عبء علينا . ويخفض الزعماء رؤوسهم لوعة وألماً فان القبيلة فى فقر مدقع منذ أن طردت من « الاراضى العالية » على سفوح جبل كينيا . وهى أخصب الاراضى هناك ، ومنذ أن نزلت إلى السهل فى منطقة شبه مجدبة . لا تكاد تأتى الفلاح بخير .

وأطلق على الطفل اسم كاماو ، ولكن بريق عينيه ، وسرعة ذكاءه ومحبته لابويه ، ومعرفته بواجبه ، كل هذا جعل منه طفلا محبوباً . أسرع من غيره نضوجاً ، مما جعل أهله يتنبأون له بمستقبل باهر بين أهله وعشيرته.

وفى العاشرة من عمره أصبح يتيما الأب يذاق مرارة الوحدة. ومرارة الحرمان من أب عطوف ، وهو مازال غض الاهاب واهنا لا يستطيع لتيار الحياة صموداً .

أرسلته أمه إلى مدرسة أرسالية دينية اسكتلندية قرب « فورت هول » فتعلم الانجليزية ، قراءة وكتابة . وكان بارعا سريع الفهم . فكان يعاون

الراهبات فى شئون المدرسة أوقات الفراغ . ثم جاءت المحنة الثانية . فقد اصيب بمرض اعجزه عن النهوض والمشى . واشار الجراحون بضرورة اجراء عملية جراحية فى عموده الفقرى ، لا نعرف تفصيلها ولكننا نعرف فقط انه شفى منها باعجوبة من أعاجيب السماء .

كان خفيفاً محبوباً يعاون الراهبات والرهبان فى عملهم . وسرعان ما أصبحت له كلمة نافذة فى برنامج التغذية .واختيارها وتنظيمها . ثم عمدوه فاصبح مسيحياً واطلقوا عليه اسم جونستون . واختصر بعد ذلك إلى جومو .

وكأن الله قد شاء ان تكون النجارة مهنة قادة الامم ودعاة التحرر والسلام . فقد كان المسيح عليه السلام فى طفولته وحداثة سنه نجاراً يعاون يوسف النبى فى مهنته . وتعلم جومو النجارة كى يكتسب منها رزقاً رغدا يعاون به أسرته . بمال منتظم كان يبعث به اليها الفينة بعد الفينة . كلما وجد منه فضلة .

ولكنه كما قلنا من قبل برع فى اللغة الانجليزية كتابة وقراءة وحديثا فعينوه فى سنة ١٩١٩ مترجما فى المحكمة العليا وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وهى أول مرة يعين فيها صبى فى مثل هذا العمل الذى يحتاج إلى خبرة ودقة فى التعبير .

وكان ولسون ، الرئيس الامريكى حينذاك ، قد قال بعد هزيمة المانيا وحلفائها فى الحرب العالمية الأولى ان من حق كل أمة ان تقرر مصيرها كما تريد فاستيقظت الأمم من سباتها وثارت مصر وارلندا وغيرهما تطالب حقها المشروع فى الاستقلال والحرية الكاملة ووصلت أنباء هذه الثورات إلى كينيا ، فى انباء مشوهة فى الصحف الانجليزية ولكن عين جومو النافذة وعقله الثاقب كانا ييسران له قراءة ما بين السطور فيدرك من هذا النبأ وذاك

ان الناس تموت من أجل الحرية وجعل يتساءل بينه وبين نفسه : ولماذا لا نموت من اجل الارض الطيبة .. ومن اجل الحرية فى هذه البلاد أيضا ؟

****

كانت لالمانيا مستعمرات فى أفريقية . وقد حاربهم الانجليز حتى اخرجوهم منها بمعاونة القبائل الوطنية . وبعد أن وعدها الانجليز مالاوحرية واستقلالا ، وانتهت الحرب واستولى البريطانيون على امبراطورية غليوم السابقة فى افريقية . ولكنهم نكثوا العهود واخلوا بالوعود . فكان الافريقيون فى حالة ثورة نفسية مكبوتة .

وتحدث جومو الى كثير من الاصدقاء فى دار المحكمة العليا وخارجها عن هذا الظلم الفادح . وأصبح مركزاً لنشاط وطنى كبير . فنقلوه من المحكمة العليا الى وظائف كتابية فى البلدية ، لعل حماسته تموت .

كان جومو ينمو ويكبر واسلوبه يزداد روعة وتبيانا ، فكان يكتب فى الصحف بامضاءات مختلفة ، ورغم انها صحف انجليزية فان القضايا التى كان يدافع عنها كانت جريئة ، ولكنه لم يستطع الكتابة فى السياسة واقتصر على الدفاع عن حق قبيلته فى استرداد ما تستطيعه من ارضها ، ومن حقوقها الأخرى .

وكان زعماء قبيلة كيكويو قد الفوا الهيئات واللجان للدفاع عن حقوقهم وجمعوا الاموال لذلك من قلائل اثريائهم . ومن بعض التجار الآسيويين والعرب فى مدن كينيا فعينوه فى عام ١٩٢٨ رئيسا لتحرير « مويجتانيا » وهى جريدة افريقية تطبع فصول منها بلغة قبيلة كيكويو ، ويطبع الباقى باللغة الانجليزية .

ولفت جومو الانظار باسلوبه الرائع وحججه الدامغة وعالج القضايا السياسية والاقتصادية من نواح جديدة فزادها قوة . فانتخبوه رئيسا للهيئة التى كانت تدافع عن حقوقهم وكان اسمها « الاتحاد المركزى لكيكويو »

***

وأدرك أحرار كينيا أنهم لن ينالوا حقهم من المستوطنين البيض الذين انتزعوا منهم احسن الاراضى واخصبها فان المسألة مسألة حياة وموت . ولن يستطيع احد ارغامهم على ترك مزارعهم ليردوهـا إلى اصحابها الشرعيين . فاتجهت الانظار الى الخارج ، ونقل الدفاع عن قضيتهم الى لندن بعيدا عن المستوطنين البيض الذين سيطاردون على جميع مرافق الحيـاة والمناصب الكبرى فى كينيا ،

أرسل زعماء كيكويو « جومو » إلى بريطانيا لتقديم شكاوى الشعب إلى الحكومة البريطانية عن مشكلة الأراضى . وذهـل « جومو » فى أول الامر لكثرة السيارات فى العاصمة البريطانية . ولكن ما حز فى نفسه انه لم يكن يستطيع دخول كل مكان . فان لونه الاسود كان بمثابة «جريمة» تحول بينه وبين ارتياد اكثر اماكن البيض . فكانت هذه صدمة لنفسه الابية . ولاسيما انها لم تكن تحدث فى افريقيه بتأثير المستوطنين البيض . بل فى لندن وغيرها من المدن البريطانية الراقية ، أو التى تزعم أنها راقية ! !

لم ينقطع جومو يوماً عن مراسـلة الصحف ، واعضـاء مجلسى العموم واللوردات ، من أحرار الى محافظين ؛ بل جرب من كانوا يدعون أنهم اشتراكيون . فوجدهم جميعا قالباً واحداً فى مناصرة الاستعمار ؛ وكان ما يمزق ويلقى فى سلال المهملات فى الصحف أكثر مما ينشر ! !

وكانت روسيا قد قامت بثورتها المعروفة فى سنة ١٩١٧ ومضت عليها سنوات فى حوادث داخلية مزقتها زمنا ثم استقر الأمر أخيراً للحزب الشيوعى السوفيتى . فاخذ يفعل فى القرن العشرين ما كانت الثورة الفرنسية تفعله فى عهود الاقطاع فى أول القرن التاسع عشر . أى تصدير الثورة الديمقراطية الى البلاد التى كان الاقطاع يسودها .

وانتشر رسل الثورة الشيوعية فى أنحاء أوربا . وجعلوا يتصلون

بالاحرار ، افريقيين وغير افريقيين . وكان من خططهم حينذاك نقـــل الثوريين إلى الاتحاد السوفيتي ليتعلموا المبادىء السياسية الجديدة ، مــــع تشجيعهم بشتى الوسائل ليعودوا ويحرروا بلادهم من الاستعمار . وسيطرة رأس المال .

وتعرف جومو ، وقد اصبحوا يلقبونه كنياتا بعد ذلك ، ببعض هؤلاء الرسل ، فشجعوه على السفر الى روسيا ، فسافر اليها ومكث بها عدة أشهر ثم عاد الى بلاده .

رجع جومو الى كينيا فكان صعبا على النفس ان تعود إلى الاضطهاد العنصري وآلام الشعب ، فسافر مرة ثانية فى ١٩٣١ إلى انجلترا . مزوداً بآمال شعبه لعله يعرف كيف ينتصف له.

بقى جومو فى انجلترا سنوات . يدافع عن قضية بـــلاده . وفى الوقت نفسه كان يدرس الاقتصاد بلندن . ثم انتقل إلى كلية دوربروك فى برمنجهام ثم عاد إلى لندن ليدرس علم اجناس البشر فى جامعة لندن . وكان همه من دراسة هذا العلم أن يثبت أن السود ليسوا دون البيض مقاماً . ولم يخلقوا من القردة وخلق البيض من سلالة الملائكة . وفى عام ١٩٣٨ منح الدبلوم بامتياز ، برسالة مشهورة عنوانها « أمام جبـــل كينيا » أبرز فيها آلام شعبه وأمانيه الى جانب البحث العلمى عن اجناس افريقية .

كان طول هذه المدة يعيش عيشة الضنك . ترسل اليه القبيلة ماتستطيـــع جمعه من مال قليل . فينفق أكثره على تدبيج المقالات وارسالها للصحف . واستئجار الأماكن الواسعة لالقاء المحاضرات عن حقوق الافريقيين .

وكان لا يأكل الاوجبة واحدة كل ٢٤ ساعة احيانا . مفضلا خدمة بلاده على سد رمقه رغم شدة البرد التى كانت تحتاج إلى مزيد من الطعام دائما .

وكان يقيم أول الامر فى الفنادق الرخيصة . ولكنه وفر هذا أيضا .

فكان يقيم فى حجرة بأفقر الاحياء . وعطفت عليه بعض صحف الاحرار فكانت تنقده اجراً عن مقالاته . فاقتصد مبلغا استطاع أن ينفق منه على رحلة فى أوربا عام ١٩٣٢ .

زار روسيا مرة ثانية وبقى فيها سنة ونصف سنة . ويقال أنه قضى فيها أكثر من ذلك . ويقول المؤلفون الانجليز عن تلك المدة أنه كان يقيم فى فندق لوكس المخصص للشخصيات الدولية ، والطلبة الذين كان الكومنترن يرعاهم ، ولكن قراءاتنا لاتبين بوضوح اين كان يقيم فى أوقات فراغه واثناء الليل .

* * *

وتردد جومو بين كينيا وانجلترا دفاعاً عن بلاده . وعندما نشبت الحرب فاجأته وهو فى انجلترا . وافزعته الغارات الجوية وعطلت عليه دراساته . فاقام فى مقاطعة سسكس شهوراً . ثم حدث التطور الخطير الكبير فى حياته وهو خروجه الى ميدان الكفاح الافريقى الدولى . وميدان الاتصال بالحركة العالمية والاشتراكية فى أوربا .

كان العمال الانجليز قد أنشأوا لانفسهم جمعية لتعليم المتأخرين منهم فى الدراسة . فانشأوا مدارس ليلية لتعليمهم اللغة الأدبية والرياضيات والمسائل النقابية . وكان من مفاخر جومو أن اصبح محاضراً فى هذه المدارس . واقتضاه ذلك أن يدرس . ويتحدث إلى كثيرين من أقطاب الحركة النقابية وكانوا حينذاك طلائع الفكر الاشتراكى فى غرب أوربا .

* * *

وفى خلال سنى الحرب الحالكة السواد . تعرف الى آنسه انجليزية متحررة الفكر عالية الهمة . اسمها اوناجريس كلارك . كانت مدرسة مثله فتوثقت عرى الصداقة بينهما . ثم تزوجا فى عام ١٩٤٢ وانجبت له ولدا

سماه بطرس .

وانتهت الحرب العالمية الثانية وتركت الجزء الاكبر من مدن اوربا، ولاسيما انجترا ، انقاضاً مقبضة للنفس . وولدت هذه الحرب ثورات جديدة فى النفوس . وأطاحت بمعظم العروش والدكتاتوريات واستردت الأمم حريتها السياسية والاقتصادية، وانكمش رأس المال وتغلبت النظم الاشتراكية والنقابية على غرب أوربا .

كان طبيعياً أن تزدحم اوربا بعد الحرب بالقادرين من زعماء افريقية وآسيا . ليتصل بعضهم ببعض ، ولتوحيد الجهود ، سعيا وراء الحريه حقا وليس سراباً .

والف الافريقيون فى انجلترا وغيرها جمعية سموها « اتحاد الشعوب الافريقية » كان هدفها نشر الدعوة لازالة التفرقة العنصرية . ومكافحة الاستعمار السياسى والاقتصادى ، ورد افريقية للافريقيين .

وفى عام ١٩٤٥ اصبح جومو كنياتا رئيسا لهذا الاتحاد . وعين كوامى ناكروما سكرتيرا عاما له . وقد اصبح الاخير بعد ذلك رئيساً لوزارة ساحل الذهب . وزعيما لحركة الاستقلال فى غرب افريقية .

واتجهت الفكرة إلى عقد مؤتمر دولى شعوبى عام للدفاع عن افريقية وحقوق الافريقيين . فعقدوا هذا المؤتمر فى مانشستر فى ١٩٤٥ وكان أهم بند فى جدول الاعمال بحث مشاكل الملونين فى انحاء العالم . وضرورة توفير أسباب المساواة بينهم وبين البيض فى العالم كله .

وكان مؤتمراً عظيما . ولكن نتائجه اقتصرت على الورق وحبر المطابع بدون تحقيق أى نفع جدى مادى للسود .

☆☆☆☆

وفى السنة التالية أى فى عام ١٩٤٦ . رجع جومو الى كينيا ليتزعم الحركة الوطنية من جديد بيد قوية ونفس ابية عالية وعلم واسع وتجارب

كثيرة اكتسبها أكثر من عشرين سنة فى أوربا .

* * *

قبل الحرب العالمية الثانية . كانت الحركة الوطنية بين قبيلة كيكويو قد تبلورت ، وأصبحت لها هيئة منظمة تعنى بها ، تسمى الاتحاد المركزى لكيكويو . وكان هذا الاتحاد يجمع الاموال وينفق على الدعاية السياسية فى الخارج منها . وكانت هذه الاموال هى التى تعين جومو كنياتا فى رحلاته الى أوربا .

على أن الحرب العالمية الثانية ما كادت تعلن حتى أخذ الانجليز اعضاء هذا الاتحاد بالشدة . فنفى كثيرون من أعضائه إلى المناطق الشمالية ، أى بعيداً عن موطن قبيلة كيكويو ، وغيرها من القبائل القائمة بالحركة الوطنية فى شرق أفريقيه .

واضطر هذا الاتحاد إلى أن يجعل نشاطه السرى أكثر من نشاطه العلنى احتياطاً من بطش الطغاة ، ومنعا لعرقلة الجهود ، فارتبط كل عضو فى الجماعة بقسم تحول بعد ذلك الى القسم المشهور عن ماوماو حين تحول ومن المقاومه السلبية إلى الايجابية .

كان هدف هذه الجمعية اقتصاديا ، هو استرداد « الاراضى العالية » على سفوح جبال كينيا وهى أخصب الاراضى وردها إلى أصحابها السود أو من بقى من سلالتهم ، حتى يسترجعوا خيرات هم احق بها من البيض المستعمرين . واضطرت الجمعيه إلى اصدار النشرات والصحف العنيفة وكان اكثرها مدبجاً بقلم جومو رغم انه كان فى ذلك الحين فى بريطانيا .

وفى ١٩٤٤ حدث تطور جديد فى هذه الجمعية فان المتطرفين وكانوا

يسمون « الاربعين » وانصارهم . اتجهوا إلى الشدة باكثر مما كانوا يفعلون كما الف المعتدلون الهيئة التى عرفت بعد ذلك باسم اتحاد كينيا الافريقى أو « كاو »

كانت الجمعية الأولى شديدة الحماسة ، ولكنها كانت محدودة فى نطاق برامجها ومطالبها . فأن أهم ما كانت تعنى به هو الانتصاف لقبيلة كيكويو . أما « كاو » فانها كانت لانصاف قبائل كينيا عامة ؛ وماوراء حدود كينيا أيضا فى القارة الافريقية . ولكنها كانت فى رايها اقرب الى التطور التدريجى .

وكان هدف « كاو » ايضا توحيد قبائل كينيا ، وتشجيع مصالح الافريقيين اقتصاديا وسياسياً .

العـــودة

عاد جومو كنياتا من أوربا الى كينيا فى ١٩٤٦ وهنا وقعت حادثة تدل على غباء كبار الانجليز الموظفين هناك فى ذلك الحين . فقد وجد نفسه بدون عمل ، وبدون الاشتراك فى عضوية أى هيئة سياسية ، ووجد نفسه فى مأزق حرج .

كان الانجليز يريدون بذلك أذلاله ، أو دفعه الى حالة من حالات اليأس التى ترغم ذوى النفوس الضعيفة على الانحنـــاء . فحاربوه فى رزقه . وفى الصحافة وفى الجمعيات العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . حتى إذا ماخيل اليهم أنه اصبح فى عزلة تامة ، وفى حاجة إلى المال ، عرضوا عليه منصبا كتابياً ظنا منهم أنه سيقبل هذا المنصب ليعيش .

ولكن جومو كان اقوى من الاستعمار بجحافله وامواله ومؤامراته . فرفض المنصب ، ورفض ان يعين فى المجلس التشريعى . وسئل عن ذلك

فقال انه لايدخل مجلساً يسيطر عليه الاوربيون . ليشترك فى سن قوانين ضد اصحاب البلاد الاصليين !

ورأت جمعية « كاو » المعتدلة أن الحالة السياسية أصبحت خطيرة . فانتقلت الى التطرف . وعينت جومو رئيسا لها . لتحدى الاستعمار والمستعمرين .

وبدأ جومو ينفذ ماتعلمه فى فترة الدراسات النقابيه والاشتراكية فى انجلترا . فنظم الجمعية على أساس جديد . والف لها لجنة مركزية وسرعان ما انضم كثيرون من اعضاء الجمعية السابقة (الاتحاد المركزى لكيكويو) الى « كاو » . ثم وضع لها دستوراً وبرنامجا سياسيا ، يشمل مطالب خطيرة الشأن منها .

١ ـ توحيد قبائل كينيا وازالة الفواصل التى تبعد القبيلة منها عن القبائل الأخرى :

٢ ـ حرية الكلام والخطابة .

٣ ـ المساواة فى الحقوق بين السود والآسيويين والاوربيين .

٤ ـ ازالة الفوارق العنصرية فى المواصلات والمدارس وغيرها .

٥ ـ الكفاح من أجل تعليم الافريقيين عامة كما يحدث مع البيض .

٦ ـ حرية الصحافة، وازالة القيود المفروضة على الصحف الافريقية

٧ ـ استرداد « الاراضى العالية » أى الاراضى الخصبة التى استولى عليها البيض عنوة وطردوا قبيلة كيكويو منها .

تحول خطير

وقابل الانجليز هذا البرنامج الخطير بالعنف ؛ والاضطهاد ومصادرة الصحف والنفى الى الشمال ؛ وزج الاحرار فى السجون .

لم يزد هذا جومو كنياتا الا جرأة . فعقد مع زعماء الجمعيات الوطنية اجتماعاً سرياً فى عام ١٩٤٧ كان له أثره الكبير بعد ذلك . وقرروا أن المسألة لم تعد تجدى . وأنه اصبح محتما أن يلجأوا إلى وسيلة أخرى هى المقاومة السلبية أى الاضراب والمقاطعة مع تجنب سفك الدماء .

وبدأ جومو ينظم الاضرابات فى المصانع ، وفى مزارع البيض . وقابل الانجليز هذا باهدار الحريات والدماء ومصادرة الاموال . وتحمس الناس للثورة المسلحة وجومو يعمل على تهدئتهم ، الى أن خرج على البرنامج السلمى زعماء رأوا أن يردوا القوة والعنف بمثلهما . وبدأوا يعمـــلون وحدهم . فتألفت منهم النواة الاولى «للماوماو» وان كانت الحركة ، أى حركة المقاومة ، قد بدأت قبل ذلك بسنوات .

ورغم اتجاه هؤلاء الزعماء الى العنف فانهم كانوا يعتبرون جومو كنياتا الزعيم الروحى لهم ؛ وكانوا يقفون اجلالا له كلما ذكر اسمه فى اجتماعاتهم ؛ وكان له نشيد خاص حفظه اهل كينيـــا عن ظهر قلب ؛ ولكن الانجليز كانوا يعاقبون من ينشده بالسجن .

وكان طبيعياً أن يزداد الانجليز والاوربيون تعسفا وان يزداد الوطنيون امعانا فى حركة المقاومة الايجابية . وظهر وميض خناجر ماوماو فى الليل واضحا يخطف الابصار ويجعل يفتك بالخونة وجنود الاستعمار .

المحاكمة

المتاريس فى الشوارع ... !!

وطائرة هليكوبتر تحلق فوق قرية كابنجوريا الصغيرة فى شمال كينيا .
واكياس الرمل حول بناء مدرسة قديمة منعزله عن القرية . ووراءهـا الجنود مشرعى البنادق والرماح والسيارات المدرعة ترابط فى مفترقات

الطرق حول المدرسة بمسافات بعيدة .

والاسلاك الشائكة صفوف متراحمة متعاقبة . وكل هذا لمحاكمة جومو كنياتا زعيم كينيا وخمسة من رفاقه !

* * *

كان ضابط بوليس بريطانى يجلس بجانب القاضى مسلحاً بمدفع ستن السريع الطلقات ، ويده على الزناد متأهبة لاطلاقه وقتل عشرات اذا حاول واحد من النظارة الاعتداء على القاضى ، ولو بالسباب !

كان الوقت شتاء فنحن فى يناير . ولكن المنطقة قريبة من خط الاستواء ولهذا كان الجو دافئاً جافاً يشبه جو اسوان فى الشتاء .

ومثل جومو كنياتا أمام القاضى فى قفص الاتهام . ومعه فريدكو باى أحد زعماء عمال اتحاد النقل . واشنج او نيكو رئيس تحرير احدى الصحف الافريقية التى اغلقها الاستعمار البريطانى . وبول منجى من اقطاب قبيلة واكمبا وبلدار جاجيا سكرتير فرع نيروبى لجمعية « كاو » وعضو اللجنة التنفيذية للهيئة .

كانوا ستة من اقطاب الاحرار فى البلاد . وكانت التهم الموجهة اليهم هى تنظيم حركة ماوماو ، ومدها بالسلاح والأموال ، والتشجيع على اعمال الارهاب .

جلس جومو كنياتا هادئا مع زملائه ، رابطى الجأش يظنون انهم ناجون لانها تهم ملفقة ، رغم أن القاضى كان من البيض أصحاب المزارع فى سفوح جبل كينيا أى فى الاراضى الخصبة التى سرقها البيض من قبيلة كيكويو ، وكانت هذه السرقة أول البلاء .

ولو كان جومو كنياتا فى بلد راق تتأصل فيه قواعد العدالة لطلب

حينذاك رد القاضي لانه خصم وحكم . ولكنهم علموا من أول لحظة أن لافائدة من ذلك .

وكان كل من يدخل المحكمة من المتفرجين أو الاقارب لايدخلها ألا بعد تفتيشه بدقة وحجز أى طرد معه . رغم أن الدخول كان ممنوعاً ألا لحملة التذاكر الخاصة التى صرفتها السلطات العسكرية البريطانية بدقة وعناية حتى لايتسرب الارهابيون الى المحكمة .

وقرأ القاضي اسماء المتهمين . وسألهم أن كانوا مذنبين فانكروا وتقدم عدد من كبار المحامين البريطانيين والهنود وقالوا انهم متطوعون للدفاع .
وطلب المدعى سماع الشهود أي اعوان الاستعمار الذين استأجرهم الانجليز ليحاولوا اثبات الارهاب على المتهمين وكان الحاجب يقرأ أسماءهم بصوت عال . ولم يدخل أحد لان كل شاهد تلقى تهديدا قبل ذلك من ماوماو . بانه سيصبح جثة هامدة فى قلب المحكمة اذا فاه بكلمة واحدة ضد كينياتا وزملائه !

واقتصرت شهادة الاثبات على كبار موظفى البوليس الانجليز واستأذن المحامون فى مناقشتهم فتحولت المحكمة الى مسرح هزلى فقد كان التلفيق ظاهرا بوضوح . وكان المحامون مهرة يعرفون كيف يظهرون نواحى الاختراع وسوء التدبير .
كانت المحكمة تعقد الجلسة ساعتين ثم تؤجلها اياماً وكان يبدو على القاضي رغم انه من اصحاب المزارع البيض انه يحتقر الذين دبروا القضية كلها لانها ظاهرة التلفيق . ومرت الاشهر تباعاً الى أن جاء شهر ابريل واشتدت حرارة الجو .
وكانت الصحف البريطانية فى كينيا وانجلترا نفسها تقول أن القضية زادت جومو كينياتا شهرة فى العالم واظهرته بمظهر الزعيم الوطنى

الذى يعود ثورة عارمة زعزعت أركان الامبراطورية فى أفريقية . وانها لم تكن شيئاً ضرورياً لأن الدعوة للحركة الوطنية تجاوزت حدود كينيا . وأصبحت قضيتها قضية عالمية يدافع عنها الكتاب الاحرار فى كل بلد ، فى القارات الخمس .

وقبل أن يصدر الحكم بأيام قليلة نشرت الصحف بيانا لاتحاد أصحاب المزارع من البيض قالوا فيه أنه إذا برىء كنياتا فانهم سيتولون الامر بانفسهم وانهم سيشنقونه فى أقرب شجرة !

وطلب كنياتا الكلمة الاخيرة فاعطيت له . فقال أنه لم يرد أرهاباً ولم يسفك دماً ، ولم يحث أحداً على القتل . ولكنه يعترف بمهاجمته السلمية المستمرة لسياسة الحكومة ازاء قبيلة كيكويو . فقد كان اعضاؤها ملاكا يزرعون اخصب الاراضى فحرموا منها وطردوا وشنقوا واعطوا أرضا مجدبة . واغتصب البيض الاوائل هذه الارض لانفسهم . وسخروا أهل البلاد فى زراعتها بدون أجر ، لانهم كانوا بمثابه الرقيق .

ثم قال أن جماعة «كاو» تكافح من أجل حقوق الافريقيين . فهم اصحاب الارض الاصليون ، والبيض عليهم دخلاء وغاصبون .

وقال أن من أعجب الأمور أن يجعل الاوربيون مركبات الترام والقطارات ومحطات السكه الحديد والفنادق والحدائق العامة والمدارس ثلاث درجات الدرجة الأولى منها للبيض . والثانيه للاسيويين الذين نزحوا الى هذه البلاد واستقروا فيها ، أما الدرجة الثالثة فانها للافريقيين أصحاب البلاد الشرعيين ! !

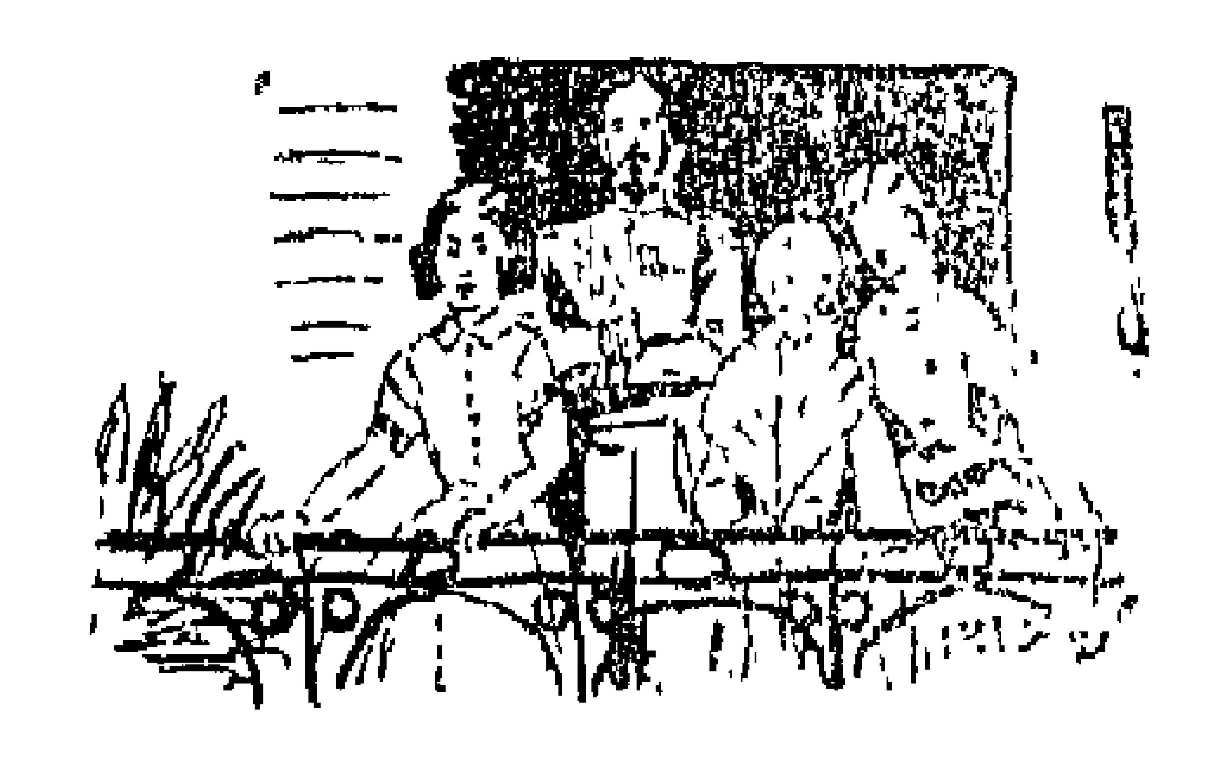
ثم قال أنه لايؤيد اعمال العنف وسفك الدماء . ولكن فظائع الانجليز والمستوطنين البيض ، هى السبب الاول فى حركه ماوماو . ولا يمكن أن يلجأ شعب مسالم الى السلاح إلا إذا أهدرت حقوقه . بل اهدرته

دماؤه . وأصبح القتلى والذين نزعت منهم الارض والمغتصبة حقوقهم أكثر من الأحرار .

* * *

وفى الجلسة الاخيرة حكم القاضى على جومو كنياتا ورفاقه بالاشغال الشاقة سبع سنوات !

وخرج الابطال الى غياهب السجون ، ولم يعودوا إلى الميدان الكفاح والحرية بعد .





جومو كنياتا .... بطل تحرير كينيا



الجنرال تنجا نيقا رجل ربعة القوام . حاد المزاج ؛ عظيم الرأس . له عينان واسعتان دعجاوان كأنهمـــا فوق زئبق رجراج . لا يقع نظـره على شيء الا ويتركه الى غيره . فهو دائم اليقظة والحذر . يحدثك . . ويظر في وجهك لحظة . ثم تحدث حركة يسيرة عن كثب منه فيضع يده على مسدسه أو خنجره : أنه دائم التيقظ والترقب ، ولا عجب في ذلك ؛ فهو الثالث في قيادة جيش « ماوماو » السري الذي اصلى القوات البريطانية في كـينيا ناراً حامية . وأقض مضاجها في منطقة نييري . اعظم المناطق خصوبة في مزارع البيض وأشدها حراسة .

كان له مخبأ في الغابات كأنه وكر النسر . وكان الحراس يقفون حوله في كل اتجاه حيطة وحذراً ، وكان يرسم خطه الجريئة دائما على اســـاس « الضرب والهرب » فيهاجم هذا المعسكر أو ذاك ، وينطلق هو ورجاله سيلا من نيران مدافعهم الرشاشة ؛ قبل أن يدق « العدو » جرس الخطر وينفخ حراسه في النفير لايقاظ النائمين في المعسكر ، أو احضار المدد من أقربه المخافر .

كان تنجانيقا يجمع رجاله ؛ ويسرعون الى المخافر الأخرى التي جردته من رجالها وسلاحها لانقاذ الموقع الاول . فيحرقها ويعيث فيهـــا فساداً ويستولي على ما بقي فيها من سلاح ؛ ويترك وراءه عدداً من القتـلى الحمر الوجوه ، ليذكرهم بان يد تنجانيقا في كل مكان .

وتنجانيقا اسم اطلق عليه اطلاقاً لانه انحدر من قبائل تنجانيقا الاشداء

ويحارب الانجليز فى اخطر الجهات ، وقد وزع اكثر من مرة منشورات يقول فيها أن ماوماو ستحرر تنجانيقا بعد تحرير كينيا . فاطلقوا عليه اسم بلاده تيدن رابشرا .

كان «تنجانيقا» لايعود إلى وكره فى الغابات حتى يجد طابوراً من النساء المجاهدات ، حاملات طعاماً وادوية واربطة وعقاقير طبية ، بين طيات الثياب ، مساهمه من غير المحاربين للمجاهدين . وكانت أمه على رأس هذا الطابور على الدوام .

وكانت للانجليز عيون فى كل مكان ، فتتبعوا طابور النساء وعرفوا المكان الذى يذهبن اليه ، والمواد التى يخفينها بين ثيابهم المرسلة الواسعة فلبس بعض المأجورين لبس النساء ، وتخفوا فى ثياب واسعة وساروا وراء طابور المجاهدات فخدع الحراس بهم ، وما كادوا يصلون إلى موضع «تنجانيقا» حتى شهروا السلاح واسروه . وهددوا بقتله أن حاول حراسه المقاومة وسرعان ما اطبقت القوات البريطانيه على تلك الغابة من كل مكان . فشغل الحراس بالمعركة عن قائدهم . واسر الاسد واودع قفصا من حديد .

وجاءه المحققون يسألونه فى السجن : لماذا حملت السلاح تسفك به دماء الجنود البريطانيين ؟

فقال أنه جندى وهب حياته بلاده . وانه مادام البيض قد استولوا على أخصب الاراضى عنوة من اجداده وآبائه . ومادام العامل الابيض يتقاضى اضعاف مايتقاضاه الاسود صاحب البلاد الحقيقى . مادام الانجليزى يسمح لكلبه بان يركب معه القطار والاوتوبيس والترام ولايسمح للاسود بان يركب معه . فان للسود قضية يجب أن يدفعوا عنها الظلم بارواحهم وبكل مايملكون ، وانهم لن يضعوا السلاح الا بعد ان تنقل بلادهم ، وترد اليهم اراضيهم وحقوقهم المغتصبة . وليس هناك مايحول بعد ذلك دون أن

تكون والانجليز أصدقاء .

وذهبوا . ومكثوا اياماً ثم عادوا ومعهم ورق رسمى بانهم مفوضون لمباحثته كزعيم من زعماء ماوماو . وانهم لايمانعون فى رد الحقوق الى اصحابها . ولكن الاتفاق لايكون نتاج حرب مطلقا . بل هو نتاج محادثات . فهل يتطوع لاقناع إخوانه بوقف المعارك واختيار من يمثلهم لعرض قضيتهم من جديد على السلطات ؟

وقال انه لايستطيع أن يرد فى لحظة ، وأنه سجين بين أيديهم ، ولكنه يطلب اليهم مهلة قصيرة ، لعله يحقق لبلاده مايريد .

وامهلوه اياماً وليالى . كان تنجانيقا لاينام فيها الاغراراً . وكان يتساءل : أن اسلحتنا قليلة ومواردنا الحالية اقل . ورجالنا يموتون بدون ان يكون لهم عوض . أما الاستعمار فيستطيع أن يحشد كل يوم مئات الالوف . فماذا يفيدنا لو جلسنا إلى مائدة واحدة معهم على قدم المساواة . نبحث أمورنا ، بينما يقف الباقون مدججين بالسلاح على اهبه لاستئناف الجهاد إذا فشلت المفاوضات ؟

وهز رأسه عناداً وترك هذا الرأى . وقال أنه دليل ضعف فاشىء عن وجوده فى السجن ، ولكن منظر الشهداء يذهبون ، والقرى تحرق والأرامل المولولات فى الجنازات ، والاطفال اليتامى ، والمآتم المنتشرة فى كل مكان ، والمشانق تنصب فى ساحات القرى عند الفجر ، وجثث المجاهدين معلقة بجبال الاستعمار ، كل هذا كان يجول فى ذهنه فتعود اليه فكرة المسالمة والمباحثات ، لعلها تأتى بشىء جديد .

وجاءوه بعد أيام فقال أنه يقبل عرضهم بشروط . أولها ان تكون كينيا دولة مستقلة ، داخل الكومنولث أو خارجه وان تحكمها وزارة من السود . وان يكون برلمانها منتخبا أنتخابا حراً وان يزول نظام النسب

الحالى فى البرلمان والوزارة . وان يكون للشعب حق تقرير مصيره كما يريد .
وقالوا له أن هذا رأيك أنت . فلماذا لاتسأل رفاقك رأيهم أيضاً ؟
وكان طبيعياً أن يقبل استطلاع الآراء . بعد ان عذبته مناظر المجازر والمشانق والقرى الضائعة أياماً

وصحبته قوة إلى الغابات ،واطلقت سراحه هناك وتركته وعادت ادراجها
كان للحرية عبير جميل لم يكن تنجانيقا يدركه قبل سجنه وكان للغابة رواء حسن لم يكن يعرفه فخيل اليه أنه خرج الى الجنة ، وأنه ان يعود الى الانجليز . . . ولكنه ذكر عهده الذى قطعه على نفسه . .وذكر انه قد يحرر بلاده بالمفاوضات بدلا من سفك الدماء فشمخ بانفه وقال أنه لن ينكث عهداً . وانه ماض الى الحرية والاستقلال من أى سبيل .

وأحس بحنين إلى وكر النسر الذى أسر فيه بعد خدعة . فاتجه نحوه فوجده مهجورا . . ولكنه أحس برغبة شديدة فى النوم تحت ظلال الشجر ليتنسم عبير الحرية لأول مرة منذ أسابيع .
وامتدت قامته الطويلة فوق الحصاد والاعشاب . ولم يحفل بنقيق الضفادع . . ولم يخش الثعابين والحيات كما كان يخشاها من قبل وراح فى سبات عميق

واستيقظ على جلبة وقرقعة سلاح . وخيل اليه لأول وهله أنه مازال فى السجن ، ثم أدرك من الاقدام السوداء التى تلبس ثياب ماوماو أنه حرطليق
ونظر فى الوجوه فوجدها تتفرس فيه بحسرة وألم . . وأدرك مايدور بخلدهم ، فهم يظنونه خانهم ولهذا أطلق الاستعمار سراحه . وجلس نصف جلسة واتكأ على ذراعه القوى وقال : أنى أريد مقابلة الزعماء لأمر هام .
وبصق مجاهدمسن على الارض . . ولوى الآخرون أعناقهم ونظروا فى الغابة بعيداً عنه . بينما بدأت أيد تعبث بخناجرها . وظن تنجانيقا أنه

حيث لامحالة . !

وشقت الفضاء صيحة فرح عاليه ... وانفرج الصف عن سيدة إبيض شعرها وتجعد وجهها واحمرت عيناها من طول البكاء أياما . وجرت نحوه مادة ذراعيها إلى الأمام . لاتنطق بغير كلمة واحدة (إبنى !! إبنى !)

وكانت الدموع تسيل على وجنتيها كأنها رذاذ منهمر

وانصرف المجاهدون عنهما وتركوهما فى ظلام الغابة وحدهما قليلا بينما ذهب فريق منهم إلى الزعماء يروون ماشاهدوه .

وظن الزعماء أنها مكيدة لأمرهم فأمروا الاعوان بالتفرق عنه وتخصيص أمهر عيونهم لتعقبه أينما ذهب .. إلى أن يتبينوا ما يريد .

وذهبت الأم وعادت بعد قليل بالزاد وقليل من رخيص الفاكهة . وظلت أياما على هذا .. تمكث معه النهار وتغادره أثناء الليل والعيون ترقبه وترقب حركات الجنود .

وفى ليلة حالكة الظلام حجبت فيها الاغصان ما يضىء السماء من عقود النجوم المتلألئة . جاءه رجل من رجال الفداء يأمره أن يتبعه بعد أن عصبت عينيه . وآلمه أن يشكوا فيه إلى هذا الحد فابتلت العصابة من عبراته الساخنة .

ومشى فى الغابة يتعثر والدليل يمسك بيده . إلى أن أحس بأن الطريق أصبحت أوسع ما كانت . وأنها فى العراء وليست فى الغابة . ثم بدأ يصعد طريقاً ملتوياً فأدرك أنه ذاهب إلى الجبال .

وبعد عناء وجهد . وبعد أن حفيت قدماه ، وهو يسير معصوب العينين فك الرجل المرافق له عصابته وأجلسه ، فتبين بعد قليل أنه فى مغارة لم يزرها من قبل ، فيها شعلة خافتة ترسل نورا أحمر اللون فتضىء الوجوه العابسة وتسفر عن منظر رهيب .

وسأله رئيس الجماعة عن سبب اطلاق سراحه مع أن الانجليز يعدمون كل من تقع أيديهم عليه من رجال ماوماو ؟ فسرد عليهم القصة كاملة وقال إنه رسول وإنه عائد إلى السجن وإذا فشل ليفعلوا به ما يشاؤون ، أما إذا كللت مساعيه بالنجاح وتحررت البلاد فإنه يكون قد استحق منهم ومن جميع المجـــاهدين الثناء .

وأشار الرئيس إلى الحارس الذي جاء بنجانيقا فأخرجه هذا الى سفح الجبل ريثما يتشاور الزعماء .

ثم عاد به الى المغارة بعد قليل فقال له الرئيس انهم يقبلون وساطته على أساس أن تسود البلاد الحرية . وأن تمحى آثار الاستعمار وأن تعود إلى الأراضى التى يستغلهـــا البيض ويغتصبون ثمـارهـا وأن تزول الفوارق العنصرية ، وأن يقرر الشعب مصيره كما يريد .

وخرج به الحارس معصوب العينين الى وكر النسر فوجد أمه فى انتظاره

وكتب نجانيقا رسالة مسهبة الى القائد البريطانى وذكر فيها الشروط التى يريد الزعماء المفاوضة على أساسها وطلب أن يوقف القتال من هـذا الجانب وذاك . تمهيدا لتصفية الجو من المآتم والمشاحن والقتلى وعـويل اليتامى ونواح الارامل . فأجيب الى طلبه وامتنع (الزعماء) بوقف الهجمات وساد الهدوء الغابات والقرى وسفوح الجبـال وبدأ الناس ينعمـون بنعمة السلام .

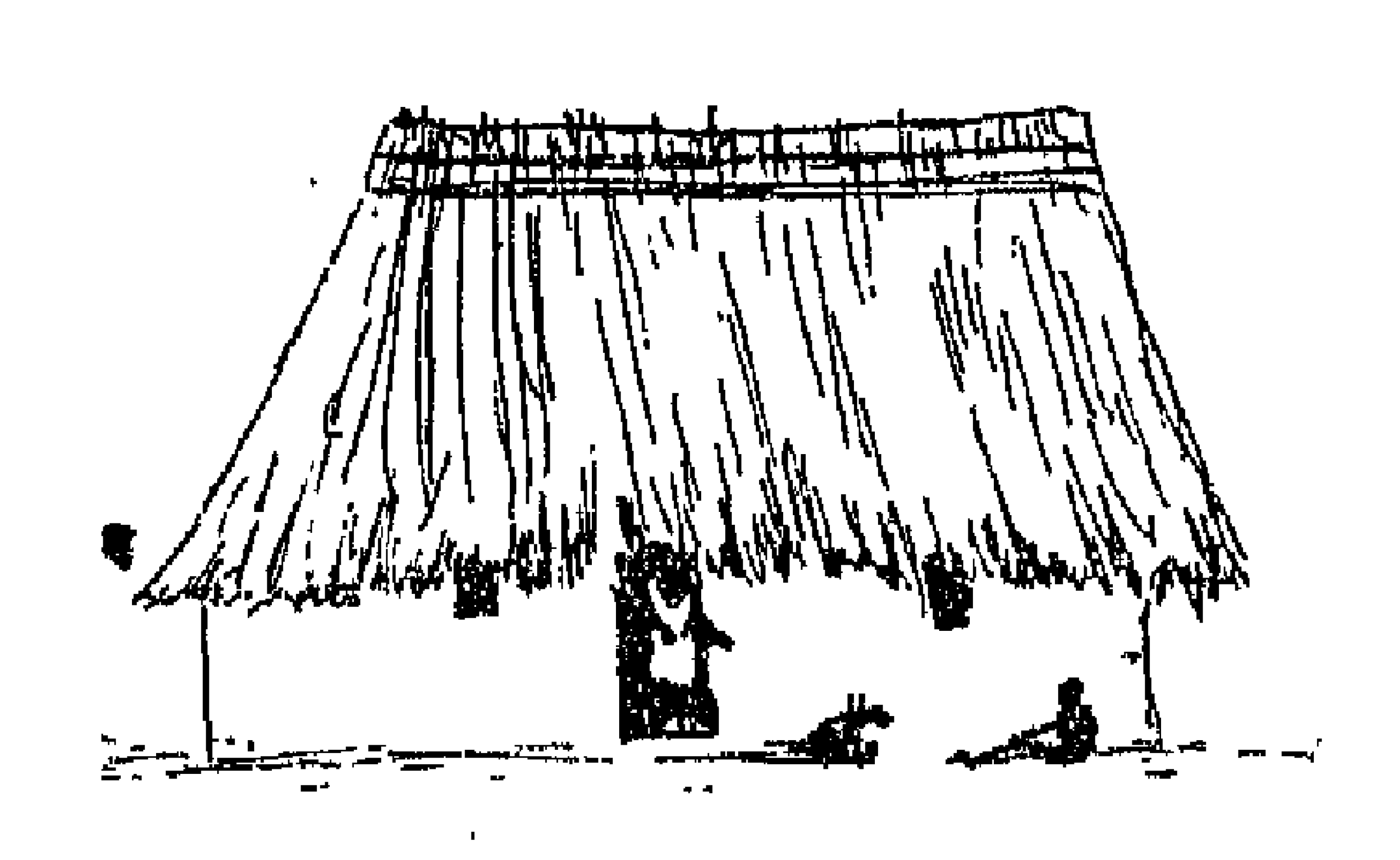
وكان هذا السلام شيئاً تأبـاه نفوس غلاة المستعمرين . فدبر فريق منهم حادثاً لإفساد مساعى السلام . واقتحموا منزل شيخ انجليزى فى السبعين من عمره . يدعى ارندل جراى ليكى . كان بينه وبين قبيلة كيكويو عهـــد الأخاء . ثم خطفوه وقتلوا زوجته وخادماً أفريقياً بمزرعتهم قرب مدينة نييرى ، وأذاع البـــوليس أن ماوماو هى التى فعلت ذلك ، وأنها دفنت

الرجل حياً ! !

وبدأت الحوادث تجرى سريعة متلاحقة . واستؤنف القتال ، وأذاع غلاة المستعمرين أن الذى فعل ذلك هو الجنرال تنجانيقا نفسه فأدرك أنه فخ نصب له لإحباط مساعيه ونكث بالعهد الذى قطعه على نفسه والتحق بالزملاء .

ومر عامان فى كفاح مرير والمعارك متأججة النيران فى الغابات وسفوح الجبال وفى شوارع المدن . وكان تنجانيقا يزداد بأساً وشدة مراس بعد ما تبين له من غدر غلاة المستعمرين . وبعد ما تبين له أن الميالين للاصلاح والمودة فئة قليلة مغلوبة على أمرها لاحول لها ولا طول .

وفى شهر أبريل ١٩٥٦ نشبت معركة عنيفة أصيب فيها تنجانيقا أصابة حالت بينه وبين اللحاق بزملائه ساعة الانسحاب فتكاثروا عليه وأمسكوا به وكم كانت الدهشة بالغة حين قدم الى المحاكمة بتهمة قتل الشيخ الانجليزى وأسرته ! !



أسّامي

كانت الموسيقى صاخبة ، فلاول مرة تعزف الفرقة العسكرية « الجاز » بنفيرها الذى يصم الآذان وضجيجها الذى يعكر صفو النفس الآمنة ، ولكنها اصبحت « مودة » بين العسكريين فى الزمن الاخير ، ولعلهم ارادوا بها أن يخفت صوت الضمير لحظة ، وان ينسوا دوى المعركة الدائرة فى الغابات وعلى سفوح الجبال .

وكانت مرجريت ماكفادن ، ابنة أخت حاكم كينيا ، تسحر الالباب بشبابها الغض وحسن عينيها الصافيتين ، وبسماتها التى تتألف القلوب وتأسر الالباب .

وكانت تختلس النظرة فى اثر النظرة الى ضابط شاب تزين كل واحد من كتفيه ثلاث نجمات متألقة كان اسمه جورج ماكفادن ايضا لانه ابن عم لها ، دعاها لزيارته وزيارة خالها الحاكم العام فاتت من انجلترا على عجل يسحرها خيالها الخصيب وتفكيرها فى صيد الاسود واقتناص الفيلة فى الغابات .

كانت شبه مخطوبة له . ولكنه لم يكن ينصرف اليها بقلبه كله كما كانت تفعل ، فكانت عيناه تزوغان هنا وهناك بين الآنسات والسيدات وكان يسحرهن بشهرته فى الحرب ، وجرأته وقسوته ، والقسوة على السود من مفاخر العسكريين البيض .

لهذا كانت قلقة تذهب نفسها شعاعاً كلما رأته مستغرقا فى حديث مع

كوكب ساطع من الكواكب اللامعات . وان كانت تخفى قلقها بالتحدث الى غيره من الشباب .

وجاء موعد رقصتها الثالثة وكانت له ، فتقدم منها فى ادب جم منحنياً واستأذن فى الرقص فمدت اليه يديها . فامسك باحداهما ووضع يده الأخرى حول خصرها . وجعلا يرقصان .

وكان يبدو مهموماً شارد الذهن اللحظه بعد الأخرى ، فسألته :
أهناك ما يشغلك !

فتوقف لحظة عن الرقص وجعل ينظر الى الغابة القريبة من خلال النافذة وعيناه شاردتان . وقال .

ـ لقد قتلوا زميل وصديق الكبتن جورج مابرى . . انهم وحوش دون ريب .

ـ اهو الشاب الذى كان يفاخر بانه قتل الآن عشرين منهم . وانه حز رأس احدهم وحنطها ووضعها بين التماسيح والقردة المحنطة فى بهو بيته ؟

ـ انه كان يلهو . . ويشجع زملاءه على خوض غمار المعركة ، اما هم فقد حزوا رأسه بعد قتله ووضعوها على رمح ، ورأها سكان العاصمه (نيروبى) مزوعة فى الميدان الرئيسى صباح اليوم .

ـ أن قلبى ينقبض لهذه المذابح . . لماذا لاتعطونهم مايريدون ، اعطوهم ارضهم وانشروا لواء المساواة وازيلوا لواء التفرقة العنصرية يهدأ كل شىء

ـ انها لم تعد أرضهم . . فالبيض يستولون عليها منذ أكثر من نصف قرن وقد انفقوا عليها اموالا لاصلاحها

ـ انها مازالت ارضهم فى نظر الاجيال المتعاقبة انها اخذت منهم غدرا وغيلة وانكم اعطيتم اجدادهم بدلا منها أرض مراع تكاد تكون مجدبة وماشية هزيلة بدلا من ماشيتهم المسمنة

ـ قد تكون هذه هى اخطاء المستعمرين الاوائل فى آخر القرن الماضى أوفى أول القرن الحالى ـ لكن ماذنبنا نحن ؟

ـ ان الفاقة التى يترددون فيها ، والجوع المنتشر فى كل مكان .. والاوبئة التى تفتك بالالوف منهم ، ووضعهم مع الماشية أو مع ما هو ادوأ منها فى عربات خاصة من القطارات أو السيارات العامة كل هذا يلاقوبهم إحناً رغم النشرات التى نوزعونا عليهم لاقناعهم بما هو عكس ذلك .

ـ يا آنستى العزيزة بل يازوجتى المقبلة الا تعلمين أن البيض هنا اخطر علينا ـ بنفوذهم السياسى فى عواصم بلادنا ـ وباموالهم ومركزهم من هذه الحفنة التى تسمى ماوماو والتى يقال ان كل فرد فيها اقسم انلا يموت إلا بعد ان يقتل عدد شعر رأسه من البيض ؟

ـ ولكنى اعجب من امور كثيرة لقد كانت بريطانيا أو الامبراطورية أول من ندد بالرقيق فى القرون السابقة وأول من اقنع العالم بالغاء السخرة وأول من نادى بحق كل شعب فى تقرير مصيره فهل هذا كله كان جائزاً بل مستحباً وواجباً فى أوروبا عندما كان اللورد بيرون يهيج العالم لتحرير اليونان من سلطة الامبراطوريه العثمانية ولا يعتبر جائزاً ومستحباً فى الوقت الحالى ؟ :

ـ انك تغالطين نفسك يامرجريت الا تعلمين ان الرقيق ممنوع هنا ايضاً وانه لايسمح بالسخرة كذلك ؟

ـ كلا [illegible] حتى الرق [illegible] الظاهرى [illegible] : بل اعنى [illegible]
جنيها فى [illegible]
من نوع [illegible] ؟ [illegible] حسب [illegible]

من يسخرهم من قبل .

وكان يضطر إلى اطعامهم طعاماً مقوياً مغذياً لكي يعملوا قبل أما هؤلاء فانهم يتناولون اجوراً لا تكاد تكفيهم وتكفى عائلاتهم خبزاً قفاراً ؛ ولعل هذا الظلم المبين من أسباب انتشار حركة التحرير ؛ أو من أسباب تستر الشعب على من يسمونهم المجاهدين .

ـ ولكن . . .

ولم يتم الضابط جملته ؛ فقد صرخت مرجريت صرخة مدوية ، وزاغ بصرها لحظة واسرعت اليه تمسك به وعيناها مثبتتان على زجاج النافذة ، فنظر الضابط وسألها في حدة : ماالذى يخيفك ؟

ـ انه أحد رجال ماوماو .

ـ كلا .. أنه ساحر يلبس ثياب النمر وقد وضع حول عنقه عقوداً من « الودع » والمحار ؛ أنه يرقص فقط ؛ ولعله أراد أن يبين لنا مشاركة الاهالى لنا فى سرورنا .

وقف الرقص وبدأ المدعوون يتجهون نحو النافذة ؛ كان الساحر يرقص رقصات جنونية عنيفة ؛ فى دورات متلاحقة سريعة ؛وكان يتجهمن النافذة إلى الباب وقد زحف عند حافة الغابة جمع من الزنوج يرقبونه فى قلق بالغ وخرج الكبتن ماكسفادن ليمنعه من الدخول ، وخرج اثنان من صغار الضباط معه . وصوب جنود الحراسة حرابهم المشرعة نحو الساحر ؛ فلم يأبه هذا لهم وجعل يرقص ويدور ، وامر الحاكم العام ان لايطلق النار عليه أحد ، ثم مد يده بالعصاوجعل يقترب رويداًرويداً منهم ،ومرجريت تمسك بذراع ماكفادنى ؛ إلى أن مس الساحر كتف الضابط وقبعته بطرف عصاه ؛ ثم بدأ يتراجع وعيناه تقدحان شرراً ؛ وسمع المدعوون فى فزع صوت جمع الزنوج وهم يلوحون بحرابهم فى الهواءويقولون «الموتله»

وامتقع وجه ماكفادن ، وصاحت مرجريت مايعني هذا ؟ ماذا يقولون فقال لها زميل للضابط ان الساحر تنبأ لهم بان ماكفادن سيموت .. وهي مشعوذة على أى حال .

وهاج الضابط وأخرج بعضهم مسدساتهم ; ومد الحاكم يده الى مسدس احدهم فتناوله واطلق منه عدة طلقات فى الهواء ، وفعل ياورانه ذلك . فاختفى جمع الزنوج فى الغابات .

واستأنفت فرقه الموسيقى عزفها . ولكنها متوترة الاعصاب هى الأخرى فلم تطق السود الى عزف « الجاز » واقتصرت على نغمات الفالس الهادئة .

وبعد أيام لقى ماكفادن مصرعه .

قسم الماو ماو

- ليقتلني هذا القسم إذا ارتكبت عملا من أعمال الخيانة أو شهدت على عضو في الجمعية
- وليقتلني هذا القسم إذا لم أقتل أعداء الجمعية ومنهم الأوربيون عندما يطلب مني ذلك
- وليقتلني هذا القسم إذا دعتني الجمعية ولم ألب النداء
- وليقتلني هذا القسم إذا لم أؤيد زعماء الجمعية في أي قضية قانونية
- وليقتلني هذا القسم إذا خنت بيت "مومبي" (قبيلة كيكويو)، أو هذه الجمعية
- وليقتلني هذا القسم إذا بعت أرضي لأحد غير "بيت مومبي"

ولتذهب نفسي شعاعا وليقتلني هذا القسم إن أفشيت سر الجمعية

عين ماو ماو

كان عبدالله بن محمد عربياً من شرق افريقية ؛ أغدر من أسر القبائل الأولى التى تدفقت على كينيا من عدن ، واليمن ، وحضرموت .

واحتفظت الأسرة باسلامها رغم ضغط المبشرين الاجانب ، ورغم الاستعمار البريطانى ، واشتهرت بالتقى والورع ولكنها كانت أبية كريمة تأنف من الاختلاط بالبيض والأجانب ، فاحتفظت بشيء من توقير الناس لها .

وكان عبدالله صبيا صغيراً عندما مات أبوه ، وكانت امه سيدة محببة فلم ترض لنفسها العمل فى بيوت الاثرياء ، وكانت بها أنفة فرفضت الاستجداء من أقارب الزوج ، ورأت أن يعمل الابن ، وأن تعزل هى فى البيت وتنسج إلى أن يرتق الله ثوب حياتها المهلهل بفضل من عنده .

بعثت بعبد الله ليعمل فى مكتبة ، وكان صاحبها يبيع الكتب العربية والانجليزية والصحف فى حانوت ضيق بالسوق ، فى عاصمة كينيا .

وادرك الرجل ، وكان مسلماً أيضا ـ ان الابن والأرملة فى ضيق . فنقد الأبن مالا وجعل يرسله بالصحف صباح كل يوم إلى بيوت الحكام فيمدونه مالا قليلا ، ففتح الله بيتاً كان بموت الأب مغلقاً .

وكان حاكم كينيا خارجاً من قصره فى أوائل هذا القرن ليركب عربة تجرها ستة من الخيول المطهمة ، وأمامه السعاة يجرون حاملين عارد بثياب

من بقايا القرون الوسطى ؛ فرأى الصبى الصغير يحمل الصحف ويدخـل بقلب جرىء وجنان ثابت . فاستوقفه وسأله عن أسمه ؛ وما يعمله ؛ وكأنه قد نال من نفسه شيئاً من الرحمة حين عرف أنه يتيم يعول اسرته ؛ فضمه الى الخدم الخاص .

وكانت فرصة تعلم فيها عبدالله اللغة الانجليزية واتقنها وتداول الحكام واحدا بعد الآخر وهو موضع ثقة الجميع وكان رؤوفاً بأهل وطنه مسلمين أو غير مسلمين ؛ يسعى للتخفيف عن آلامهم ؛ ويهتم بشئونهم ؛ فاحبه الجميع وكنوا له التقدير والاحترام ؛ وسرعان ماجعلوه فى ادارة الشكاوى والمظـالم ،

وعندما بدأت حركة ماوماو ؛ كان عبدالله قد أربى على الخمسين من عمره ؛ وتزوج امرأة افريقية سوداء وأسلمت وانجبت له اطفـالا ؛ وكان يسوءه ان يحاول ركوب الاتوبيس فيضعونه لسمرته فى قسم الآسيويين ويضعون زوجتـه فى قسم الأفريقيين . ومن كان فاتح اللون من اولاده وضعوه معه ؛ ومن كان قاتما وضعوه مع أمه !

وأقتنى عبدالله سيارة ليجنب نفسه واسرته هذه المذلة ولـكنهم كانوا يأبون عليه أن يضعها فى (جراج) خدم القصور وسعاته ؛ فـكان يضعها فى طريق جانبى ؛ بعد أن يترك فيها أحد أولاده خشية اختفائها !

كان عبدالله صديقا للـكثيرين من اعضاء حزب جوموكنياتا ؛ وهو الحزب الوطنى الذى يطالب بالاستقلال بطرق مشروعة سلمية ؛ فـكان سفيرا بينهم وبين كبار الانجليز فى القصر أكثر من مرة ..

ولـكن عنت الرجل الأبيض كان يحيط المفاوضات دئما .

وكان عبدالله بن محمد يتهم أصدقاءه جميعا بعد حين بالتهور ؛ ولـكنه

مما كاد يرى أن الرجل الأبيض يأبى التخلى عن الأراضى الخصبة التى سرقها من السود ، وأنه مصر على فصل اصحاب كل لون دون اصحاب الالوان الأخرى فى السيارات ، والقطارات ، والمحطات ، ومركبات الترام ، والطائرات حتى أخذ الغضب يستبد به .

وفى مساء يوم ايقظه دق عنيف على بابه ، ففتح مذعوراً . واذا بجمع من النساء الافريقيات بالباب ، يمسكن بتلابيبه والدموع منحدرة من مآقيهن ، وكن فى ثياب عالية فادرك انهن لسن بالمتسولات بل من عليه الافريقيين فى المدينة .

ثم تبين من بين الزفرات كلمات ادرك منها انهن زوجات اصدقائه الزعماء وان هؤلاء زجوا فى السجون فى هدأة الليل ! !

وادخلهن عبدالله بن محمد دون ان ينظر فى وجوههن ، وطلب إلى زوجه العناية بهن الى أن يعود ، ثم لبس ثيابه واسرع بعربته الى « القصر »

وعند الباب الكبير رأى أن الحراس ضوعفوا ، وأن سيارات مدرعة تحيط بالقصر ، وأن الجنود قد وضعوا الحراب فى البنادق ، ولكنهم عرفوه فتركوه يمر ، إلى أن دخلا الحديقة مترجلا .

ووجد ضابطاً له به عهد طويل يجلس إلى مائدة عند درج القصر . فسأله الضابط .

س — الى اين انت ذاهب الآن ؟

ج — سأقابل سكرتير الحاكم العام ، لاطلب المقابلة فوراً .

س — نحن فى الفجر الآن ، فهل تظن أن ضابطا واحدا فى هذا القصر يستطيع أن يوقظه ؟

ج — ان البلاد مهددة بثورة خطيرة إذا طلع الصبح وعرف الناس

ان زعماءهم زجوا فى السجون .

س ــ ليفعلوا مايشاءون ، أن كل شارع اصبح معسكراً عاما سنقتلهم عشرات عشرات كأنهم طيور فى يوم صيد .

ج ــ انهم احياء ولهم الحق فى يعيشوا احراراً داخل بلادهم ، انها بلادهم و ليست بلاد احد غيرهم .

و نظر اليه الضابط نظرة طويلة ، ثم نهض من مقعده ولكم عبدالله بن محمد لكمة شديده يريد أن يلقيه أرضا . ولكن فك عبدالله كانت متينة فلم يسقط ، وترنح قليلا وارتد الى الوراء ، ثم اتجه نحو الضابط يريد أن يكيل له الصاع صاعين ، فاطلق جندى رصاصة فى الهواء ليحذره .

واسرع الجنود اليه فاشبعوه ضرباً و لكما .

وكان الحاكم ساهرا طول الليل يقرأ التقارير ويسأل عن الانباء فاسرع الى الشرفة عندما سمع الطلق النارى ، ورأى عبدالله بن محمد بين الجنـــود يتناولون ضربه كأنه كرة !

وصاح الحاكم فى ياوره « انقذ الرجل وآتنى به حالا » وسمع الضباط والجنود جملة الحاكم فرجعوا خطوات الى الوراء .. وخفضوا رؤوسهم فى ذلة وخوف ، فقد كانوا يعلمون أن لعبدالله عند الحكام مكانة .

ونهض عبدالله من مكانه يمسح الدم المتدفق من بين اسنانه ومن جبهته ثم جعل يعرج حتى وصل الى مكان الحاكم وشكره . فسأله هذا عما حدث فروى له كل شيء ، فطلب اليه الحاكم ان يسرع بالدخول الى مكتبه .

وسأله الحاكم عن أسباب مجيئه فى الليل فقال ان الزعماء المعتقلين من أعظم القادة نفوذا . وانه يخشى أن يصبح الناس فيجدوهم وراء القضبان فيثوروا .

وسأله الحاكم عنهم واحدا بعد الآخر ، وعن مدى مكانة كل منهم بين قومه .

ولكن الضباط المحيطين بالحاكم كانوا يبدون سخريتهم بما يقول عبدالله ، فأمر الحاكم بمضاعفة الحراسة والاحتياط فى كل مكان .

ثم مر بهم ان يحرسوه حتى يصل الى بيته سالماً . واعتذر له عن غلظة ضباطه .

* * *

وكان الفجر قد أخلى مكانا للصباح شمسه المشرقة .

وكانت الزهور يانعة مبهجة كأن الاحرار لم يكبلوا بالاغلال . وكانت الطيور تشدو ناعمة البال كأنها تفخر على الانسان بحريتها واستقلالها .

فلم يستطع عبدالله بن محمد الصعود الى بيته بعد أن إنصرف عنه حراسة بل نزل مترجلا واتجه صوب الغابة . والدمع ينهمر من عينيه .

فانه لم يضرب ولم يركل بالاحذية من قبل حتى وهو يتيم يستجدى اللقمة من اجله ومن اجل امه .

وجلس على جذع شجرة باسقة يستعرض الامس واليوم . فسمع فحيحاً كانه فحيح الافعى فنهض مذعوراً و نظر حوله . فسمع ضحكة خفيفة ثم نظر وراءه فوجد ماجوميا شقيق زوجته .

قال له ماجوميا انى لم ارك منذ « خطفت » اختى واغريتها بالاسلام والزواج منك . وقد ارسل الزعماء نساءهم اليك بينما كنا نحرسهن من بعيد وقد تعقبناك ورأينا عن غير كثب كيف كال لك رجال الاستعمار الضربات ولعمرى لقد كنا نحتقرك قبل اليوم و نلقبك خادم السفاحين . أما وقد ذهبت لتدفع عن زعمائنا الاذى ونلت ما نلت من ايدى المستعمرين

ولكنهم فانا نحتفل بهذا اليوم المجيد، لانها ورائك!

ثم عانقه وبكى الرجلان.

كان بكاء الغيظ المكتوم والذلة التى لا تعرف كيف تخرج من ورائها.

وكان بكاء يفصل عهد المساومة عن عهد الكفاح إلى الموت.

واخرج عبدالله بن محمد كيس نقود واعطاه لصهره وقال له انى اليوم معكم، فما كنت لاخونكم وانتم فى هذا البلاء، أو ادخل بيت انجليزى بعد، وقد ارى عمرى على الخمسين ولكن بى قوة الى اليوم. أما النساء فانا سنجمع لهن ما يكفيهن الى أن نعود.. أو نموت عنهن»

ونظر عبدالله حوله فوجد رجالا اشداء يحملون الحراب ويتقدمون فى بطء

لقد اطمأنوا اليه فأخذوا يفدون ويصافحونه، أو يعانقونه حتى عقد ما يشبه المؤتمر:

وقال ماجومبا انى صهرك، وأظن انى أحق المكافحين بالكلام فى هذا الموقف، فانت معنا محارب عادى. ولكنك فى قصر الحاكم عين لنا تعرف أسرارهم وتحركاتهم وتحذرنا من الضربات المفاجئة. فهل تبايعنا بيعة الموت على ذلك.

وقال عبدالله انى مسلم

وقال ماجومبا اذن فاقسم على ما تريد. فاخرج عبدالله مصحفا من جيبه واقسم ان يكون واحداً منهم له مالهم وعليه ما عليهم؛ وان يمدهم بكل خبر يقيهم اخطار الاستعمار. وانصرفوا عنه متسللين كما جاءوا.. حتى قال ماجومبا ان هناك خطراً من ان يروه معهم. وان عليه أن يعطى الرسائل

كل يوم لزوجته . وانها تعرف بيته (أى بيت ماجومبا) ونستطيع ان تضعها فى كنانة سهامه كل صباح .

فاذا زار بيته ووجد الرسالة علم منها اسرار قوات الاستعمار فيبلغها زملاءه ، لعلهم يتقون بعض شرهم .

* * *

وجعل عبدالله بن محمد للمجاهدين ساعتين كل يوم من وقته ، ساعة الصباح الباكر . يكتب فيها تقريراً مقتضباً عما رآه فى الليل وسمعه . والتقرير الثانى فى المساء عما رآه وشهده فى النهار . وكانت أمرأته تذهب بالتقرير كل صباح ومساء إلى بيت أخيها . ويحمله ماجامبو إلى الرفاق .

وارتاب الانجليز فى الامر ؛ فكانوا إذا دبروا خطة واطلع عليها الحاكم أو ياوره ، رأوا أن رجال ماوماو متأهبون لها . وإذا دبروا خطة كتموها بينهم وبين أنفسهم ؛ كانت مفاجأة للمجاهدين ولقيت نجاحاً كبيراً ؛ فادركوا من توالى الحوادث أن فى قصر الحاكم عيناً عليهم .

وكانت بعبدالله بن محمد فى المدة الاخيرة حماسة لبنى وطنه ، فاتجه اليه والى نفر من رفاقه الموظفين الافريقيين فى القصر الظن .

وجاء بدال ليقول لزوجته يوماً أن رجال البوليس السرى البريطانى كانوا يسألون عن عبدالله وهل يعقد اجتماعات فى بيته ؛ وهل يتصل باحد من تراب السلطات فى ولائهم لبريطانيا ؟

وسألته السيدة وماذا قلتم لهم ؟

قال لقد قلنا خيراً ... اليس عبدالله لنا درعاً ؟

وخشيت المرأة أول الأمر ان يرتاع زوجها فيقعد عن اداء واجبه

وهى اشد احساسا منه بالحماسة الافريقية لنصرة المظلومين . أليست سوداء داكنة وهو عربى أسمر ؟

ولكنها رأت توارد الجواسيس على الدار ، ومراقبتهم لها ليلا ونهارا فصحت عما يجول بخاطرها . فقال لها أنه يعرف كل شىء ؛ وانه لايخشى أحداً ، فان المسلم لايخشى غير ربه ، مادام يؤدى واجبه .

وكان عبدالله بن محمد يركب سيارته فيرى رجلا يركب دراجة وراءه وآخر يركب سيارة صغيرة ويقتفى أثره ، وثالثا يجرى لاهثا حتى لاتفوته حركة واحدة من حركات عبدالله بن محمد ؛ فيبتسم هذا بينه وبين نفسه ويقول هاقد اصبحت فى موكب رسمى ليلا ونهاراً ؛ وتضحك زوجته عندما يحدثها كل يوم بهذه المغامرات .

وفى يوم ثارت أعصابه ؛ فوقف بالسيارة فجأة قرب باب قصر الحاكم ؛ وامسك بتلابيب رجل يركب دراجة خلفه ، وسأله من ارسلك ؟

فتلعثم الرجل ولم يحر جواباً . واخرج له عبدالله بطاقته ، وقال له انى موظف كبير فى هذا القصر . ولئن رأيتك مرة ثانية تقتفى اثرى لالهبن ظهرك بهذا السوط ثم ضربه سوطاً فاسرع الرجل بالفرار .

وحسب عبدالله بن محمد أن الامر قد انتهى وانهم لن يعودوا ؛ ولكنه ماكاد يرجع الى داره حتى وجدها أشبه بمعسكر مسلح فالجنود البريطانيون على السلم . وعند الباب وفى كل حجرة من حجراته ؛ يفتشون وينقبون . ويهدمون ارض الحجرات ؛ ظنا منهم أنها ملأى بالسلاح . أو رسائل الفدائيين ، ولكنهم لم يجدوا لشىء من هذا اثراً .

وكانوا قد تكاثروا على الحاكم واقنعوه بان عبدالله بن محمد متواطيء مع الفدائيين فأمر باعتقاله . وتفتيش بيته .

ﷺ

دهش عبدالله اذ وجد نفسه بين جدران ثلاثة وباب حالك السواد في حجرة عالية النافذة ، ارضها بلاط لا غطاء ولا فراش فيه . والغيظ يكاد يقتله .

ولم يجد عبد بن محمد غير خالقه مؤملا وسندا فكان يصلي في النهار والليل أكثر وقته ، تاركا أمره لبارئه .

واجتمع موجامبو برفاقه وروى لهم قصة صهره . وكيف اعتقله الانجليز وحبسوه في حجرة منفردة وهي اسوأ انواع السجون فاجمعوا على امر .

وكان السجن في أطراف نيروبي . كان قبل ذلك مدرسه ثم حولوها الى سجن ، بعد أن قسموا الحجرة الواحدة اربع حجرات أو خمساً . وسدوا نوافذها بالقضبان ، وطلوا أرضها بالسواد امعانا في الارهاب .

وفي ذات مساء ، سمع الحراس جلبة . ثم رأوها تحترق قرب باب السجن ، ثم رأوها تنفجر وتحطم الباب ، فادركوا أن وراء ذلك مؤامرة لاقتحام السجن ، فتكاثروا عند الباب واسلحتهم مشرعة ، بينما كان رجال ماوماو يقفزون من السور الخلفي ثم دارت معركه رهيبة في فناء السجن ، ذهب ضحيتها عدد كبير من المجاهدين ، ولكنهم افنوا الحراس الانجليز عن آخرهم . ثم أخرجوا المسجونين بعد أن فجروا اقفال الابواب بمسدساتهم .

وخرج المسجونون الى الحرية ، لحظات قصاراً لكي يدخلوا سجنا مظلما آخر ، هو تلك الغابة الرهيبة التي لايجرؤ الانجليز على دخولها

إلا مرة كل عدة اشهر . فى هجوم كبير تمهد له الطائرات والمدفعية . ثم يضطرون الى الجلاء عنها بعد حين .

وحمل عبدالله بن محمد السلاح . مستغفرا ربه اذ كان سيقتل به عدو الله وعدو الوطن لأول مرة .



معركة الجداول السبعة

تنحدر من جبل كينيا سبعة جداول ؛ تنبع من جهات شتى وتصب في نهر صغير واحد ، اطلق عليها الوطنيون اسم « الاشقاء السبعة » لأنهـــا متعانقة متـكاملة ، ولها في تاريخ قبيلة كيكويو أساطير .

وتمر هذه الجداول بغابات كـثيفة ؛ ومزارع نضرة ، وكان أكـثرهـا ملـكا لهذه القبيلة البائسة ، ثم استولى البيض على تلك الاراضي ؛ ودفعوا بالقبيلة بعيدا ؛ إلى أرض نصف خصبة أو أرض مجدبة .

على أن بعض أصحاب الأملاك الاصليين مازالوا يقيمون في الغـابات يعتصمون ، بظلالها . ويبيتون بين أفنان اشجارهـا ؛ ومن هؤلاء رجـل يـكاد يعيش على الاعشاب وما يتساقط من ثمار الشجر ، هو الأب كوفو »

وكوفو شيخ في الثمانين أو التسعين من عمره ؛ بل من يدرى ؟ فانه قد يكون عمره تجاوز المائة ؛ فهو علامة نسابة يعرف مصادر القبائل و بطونها وافخاذهـــا ، ويعرف كيف تشردت وطردت من أخصب الاراضي إلى اجدبها . عندما جاء الرجل الابيض الى كينيا ، ليزيدها حضارة ورقياً !!

جلس الاب كوفو أمام شجرة باسقة ، وضع في شق فيها ثياباً مهلهلة له وحاجياته الصغيرة القليلة ، وكان قد نزل لتوه عن مكان يتخذه فراشاً بين الاغصان أو جعل يمضغ بعض اعشاب ، وثمار شبه متعفنة .

وجاءه جندى انجليزى فارع الطول ؛ عريض المنكبين ؛ قديم في مهنته

متمرس فى قتل الناس مواجهة أو غيلة وغــدراً . حضر الحربين الأولى والثانية . ولم يبق له إلا أن يروى حربته بسيل من دماء « السود » كما كان يقول ، قبل أن يوارى الثرى جسده لانها لم ترو بدم الافريقيين بعد !

وكان شرساً متعطشا للدماء ، كأنه قد كلف أن يحيل كينيا الى حمام من دم . فكان لايرى افريقيا فى غابة إلا أطلق النار وقتله . وأدعى أنه كان يريد مهاجمته . وانه لم يقتله إلا دفاعاً عن النفس .

جاء هذا الجندى الفارع الطول رغم انه فى نحو الستين من عمره . ووقف أمام الشيخ المسن . وحدثه بكلمات قليلة مما يعرفه عن لغة الكيكويو .

ـــ هلا رأيت احداً من رجال ماوماو ؟

ـــ لا . . .

ـــ هل تعرف اين يعقدون اجتماعاتهم .

ـــ لا . . .

ـــ هل تعرف اين يؤدون القسم اليوم ؟

ـــ لا . . .

فغضب الجندى وغلا دم الامبراطورية العتيقة فى شرايينه ، ولطم الشيخ المسن لطمة شديدة اسقطتــه على الارض ، وهو يكاد يكون فاقد الوعى .

ـــ هل معك سلاح ؟

فقال الشيخ فى شبه زفرة وآهة ألم « لا »

ففتشه الجندى فلم يجد شيئا . ورفع الثياب المهلهلة بطرف البندقيــة قطعة بعد أخرى ، فلم يجد شيئا ؛ وتطلع الى الشجرة وما حولها فلم يجــد

شيئاً فاهاجه فشله . ورفس الشيخ الفانى رفسة شديدة بحذائه الثقيل ،
جعلته يسقط مغشياً عليه .

ولحق به زميل له كان أحدث شبابا واجمل وجها وانعم بشرة .
وكانا إلفين يحب احدهما الآخر ويتلازمان أثناء الليل والنهار . حتى لقد
كان الزملاء يتفكهون ويقولون . لاعجب أن كان هذا الجندى القديم باقياً
في الجيش الى الآن !

ونظر اليه الجندى الشيخ نظرة طويلة وقال له .
ـ الم تعثروا عليهم بعد ؟

ـ لا ، ان الدبابات لا تستطيع الدخول لأن الغابة كثيفة . ويسير كل
طابور بحذاء جدول من الجداول السبعة . الى أن يلتقى الجميع عند تجمعها
فى أول النهير الصغير . أما نحن الفدائيين قد فرقونا فى ارجاء الغابة لنكون
للطوابير السبعة رواداً ، شأننا فى كل معركة ، يختفون وراءنا دائما !

ثم ضحك وربت على كتف زميله .
وربت هذا بدوره على خده ، وقال له .
تعال نجوب هذه المنطقة مرا
وتواريا وراء الاشجار الكثيفة .

* * *

وعاد الجندى الشيخ ، والجندى الشاب الجميل المحيا ، الناعم البشرة ..
وعادا الى مكان الاب كوفو فوجداه يستجمع قواه بعد افاقته من الاغماء ..
وعاد الجندى المسن يسأله :

ـ هل رأيتهم ؟

ـ كلا .

فلطمه مرة أخرى فسقط الشيخ الواهى على الأرض والدم يقطر من فم تجرد من أسنانه .

وجذبه زميله الشاب الناعم قليلا الى الوراء . ثم أنحنى على الشيخ الفانى يمسح الدم المتدفق من فمه ، يجلسه ويسند ظهره الى جذع الشجرة . ويعطيه قليلا من ماء « زمزميته » وزميله السفاح يضحك ملء شدقيه . ثم يقول له فى غيظ مكتوم .

اخالك تعشقت الرجل .. أيعجبك لونه الاسود ؟

ونظر اليه زميله الناعم البشرة المورد الخدين نظرة عتاب ، ثم قال له فى شىء من الحدة « اسكت »

فسكت السفاح .

وانحنى الجندى الشاب على « الاب كـــوفو » وسأله فى همس ولطف يشبه لطف النساء .

ـ هل انت جائع ؟

ـ نعم ..

فاخرج الجندى الشاب قليلا من البسكويت كان معه وأعطاه « الاب كوفو » فالتهمه الشيخ الواهى فى لحظة ..

وانحنى عليه الجندى مرة أخرى يسأله :

ـ هل تريد شيئا آخر ؟

ـ كلا . . شكراً .

ـ هل رأيت أحدا يمر من هذا الطريق .

ـ كلا ...

ـ ألم تسمع طلقات نارية هنا أو هناك ؟

ـ كلا ...

ـ الا تعلم اين يعقد رجال ماوماو اجتماعاتهم الليلية ؟

ـ كلا . .

فقال بحدة .

ـ ألم ترهم ابدأ ؟

ـ كلا .

فازدادت حدة الجندى الشاب . ورفع يده واهوى بها على رأس الشيخ الافريقى . فتأوه هذا تأوها عميقا .. ونظر اليه بعين كلها دهشة واشفاق . واخرج ما بقى من البسكويت بين فكيه والقاه أرضا وداسه بقدمه ، فاشتد حنق الجندى الشاب وضربه بالقدمين ، والكفين ، إلى أن جذبه زميله السفاح وهو يقهقه ... وسارا فى الطريق الطويل .

* * *

ونظر الشيخ الواهى اليهما من طرف عينيه وهو راقد على الأرض الى أن اختفى اثرهما ، ثم أسرع الى الشجرة فتسلق اغصانها بنشاط يذهل من رآه فى ضعفه السابق أمام الجنديين .

واخرج من بين الاغصان بشبه طبلة ، وجعل يدق عليها دقات الحرب والتحذير بان العدو قادم ، ثم اسرع الى اخفائها .

وما مضت على ذلك لحظات حتى اسرع الفدائيون الانجليز من كل مكان صوب الموضع الذى سمعوا منه الطبل ، فلم يجدوا غير الشيخ المهلهل الثياب وفتشوه مرة أخرى فلم يجدوا شيئا ، وتسلقوا الشجرة وفتشوا اغصانها فعثروا على الطبلة ، فاخرج رئيسهم مسدسه من جيبه وصوبه نحو رأس

الشيخ وافرغ فيه عدة رصاصات فسقط هذا مضرجاً بدمه. ولكن التضحية لم تذهب عبثا لأن رجال ماوماو كانوا قـــد استيقظوا إلى الخطر الداهم وتأهبوا له .

* * *

كان الجنرال ارسكين ، سفاح الاسماعيلية السابق ، والقائد العام الجديد للقوات البريطانية فى كينيا ، هو الذى وضع خطة هذا الهجوم . وكان يسمى « هجوم الإبادة »

اشتركت فيه عشرات من طائرات الهليكوبتر . وسيارات جيب صغيرة ملأى بالدوريات المسلحة باحدث المدافـــع السريعـــة ، والوفا من « الموتوسيكلات » المجهزة بالمدافع الرشاشة والمقاعد الجانبية للضباط .

وكانت الخطة ان تضرب الطائرات منطقة واسعة فى الغابات بالقنابل الشديدة الانفجار والمدافع الرشاشة حتى يخرج منها رجال ماوماو ثم تزحف القوات الميكانيكية بعد أن يتقدمها الفدائيون بمئات الامتار ، ليقتلوا من يصادفونه من الافريقيين ؛ سواء كانوا من رجال المقاومة أو لم يكونوا ، ماداموا لايسارعون برفع أيديهم فى الهواء .

وكانت الخرائط مرسومة مقسمة أمام قيادة العمليات البريطانية وكل منطقة يجتاحونها يظللونها على الخريطة حتى لم يبق غير ربع الغابة . قرب التقاء الجداول السبعة ، عندما دق الشيخ الفانى الطبل للانذار .

* * *

بعد أن أرسل رجال ماوماو روادهم للاستكشاف أدركوا أنهم محاصرون لامحالة بين الطوابير المتقدمة حولهم من كل جانب وبين الجيش الذى ينتظرهم بفارغ الصبر خارج الغابة ؛ أى فى المزارع المتناثرة على سفوح الجبال

أدرك رجال ماوماو ذلك بثاقب بصرهم .وانهم ميتون لامحالة ، فاقاموا منطقة خنادق واسعه فى شكل دائرة ، وجعلوا ظهور بعضهم للبعض الآخر ووجوههم للعدو .

ووقف رئيسهم يخاطبهم ؛ فقال انهامعركة الحياة أو الموت ؛ ولا أويد ان أموت ميتة الثعالب فى حفلات الصيد ، بل أريد أن اقتل عشرات من جنود الاستعمار قبل أن يمزق جسدى الرصاص . فمن أراد أن يفعل ذلك فليثبت فى مكانه . ومن يخشى على احشائه من الرصاص وحراب الجنود البيض عليه أن يخرج من الآن .

ثم تلفت حوله فلم يسمع غير زمجرة الاسود .

ولم يخرج من الخنادق أحد .

وقال لهم أن العدو أكثر منا عدداً . ولديه اسلحة من أحدث طراز ، وسيارات وطائرات . وليس لدينا الا قليل من الاسلحة . ولكننا نملك مالا يملكون . نملك الايمان بقضيتنا مهما ذهب الالوف ضحايا فى سبيلها ونملك السلاح الذى نصون به كرامة شعبنا إن كتب لنا النجاح . وندافع به عن أنفسنا الى الرمق الاخير اذا متنا فى هذه الغابة شهداء .

ووصيتى اليكم ان يجمع الاحياء جثث القتلى ويحرقوها أن خسرنا المعركه ، فانى لا اريد أن يعلق الانجليز جثثنا فى قرانا ليزيدوا النفوس فزعاً كما فعلوا بعد المعارك السابقة .

ثم رفع يده وجعل يردد قسم الاستشهاد . وهو أن يفضلوا المــوت على الحياة ، بعد قتل اكبر عدد من البيض المستعمرين .

وقال فى آخر كلمة :

عليكم بالصمت . ولا تطلقوا رصاصة واحدة بدون أن يسقط بها رأس .

* * *

وسمعت قعقعة السيارات . وصيحات الجنود كأنهم قادمون على وليمة أو نزهة ، يشجعون بها الجبان ويتحمسون بها للموت .

ورفع الرئيس يده وقال . ـ

« القنابل اليدوية أولا واريد بكل قنبلة سيارة »

ولزم الجميع الصمت وقرأ كل مجاهد صلاته الاخيرة ، وتأهب للاستشهاد

واقتربت السيارات ، فقذف كل مجاهد سيارة بقنبلة يدويه ، فسقط في حفر الانفجار من سقط ، وتراجع من تراجع ، وسمع صوت القائد البريطانى يأمرهم بالوقوف والنزول من السيارات والانبطاح على الأرض ، والتأهب للهجوم .

ثم سمع المجاهدون صليل سيوف الضباط ، وحراب الجنود يضعونها فى أطراف البنادق ، ومد كل مجاهد يده الى زميله للتحية الاخيرة والوداع

ثم بدأ الزحف على البطون والجنود الانجليز لا يعرفون تماماً اين يقف الاعداء .

واستولى عليهم الفزع فظنوا رجال ماوماو معسكرين بين الاغصان العالية ، فامطروا الاشجار سيلا من نيران مدافعهم الرشاشة وبنادقهم السريعة وانتظروا الحصاد ، ولكن الجثث لم تتساقط عليهم كما كانوا يظنون .

وكانت المسافة الباقية بين الفريقين تبلغ مائتى متر فصاح قائد المجاهدين علام الانتظار ونحن ميتون ، أقفزوا من الخنادق ، والقوا قنابلكم اليدوية عليهم واطلقوا مدافعكم الرشاشة فى الرؤوس والصدور ، ثم عودوا

سريعاً قبل أن يطلقوا اسلحتهم ؛ عودوا الى الخنادق للقتال بالسلاح الابيض الى الرمق اخير ؛ واشحذوا خناجركم فانه اليوم الاخير فى هذه الحياة

وفعل المجاهدون ذلك وأمطروا جنود الاستعمار سيلا من نيران اسلحتهم وكانوا لا يطلقون رصاصة إلا وهم يصوبونها نحو الوجوه البيضاء وماتحتها من صدور المستعمرين وسمعت صيحات الالم فى كل مكان ممزوجة بصيحات الغضب التي يصيحها المجاهدون عندما يقدمون على هجوم المستميت

ثم القوا بقنابلهم اليدوية فجندلوا واحرقوا سيارات كثيرة وعادوا سريعاً الى خنادقهم بعد ان استشهد نفر منهم

ولكنهم لم يهدأوا الا بعد أن جذبوا جثث الشهداء ووضعوها امامهم حتى يدافعوا عنها الى الموت .

وامر القائد البريطانى بالهجوم العام ولكن الصفوف الامامية من المهاجمين كانوا من الجنود السود الذين يدفعهم الانجليز عادة أمامهم ليحتموا بهم فامتنع رجال ماوماو عن اطلاق النار وخاطبوهم بلهجتهم قائلين: القوا السلاح واسرعوا الينا فاننا أبناء وطن واحد وأرووا ارضه بدمائكم مدافعين لاخونه

فتردد هؤلاء لحظة ؛ ثم فر بعضهم الى رجال ماوماو فصاح هـؤلاء صيحة الفرج ، بينما اطلق الانجليز النار على ظهور المترددين . حتى لا يلحقوا باخوتهم من الراجعين الى صفوف الجهاد .

وبعد قليل تقدم الضباط بسيوفهم فصادهم رجال ماوماو فى هدوء ، وهجمت الصفوف متلاحقة بعد ذلك ، ثم أخرج المجاهدون خناجرهم وبدأ وميضها يضىء الغابة المظلمة . وفى تلك الليلة قتل رجال ماوماو عن أخرهم ولكنهم قتلوا اضعافهم من جنود الاستعمار .

ولم ينج من المذبحة الا قائدهم . فاشعل النار فى منطقة المعركة بما معه من قنابل محرقة ، والتهمت النيران الجثث وأسرعت فلول الاستعمار الباقية على قيد الحياة الى الانسحاب ، وبعد قليل كانت النيران قد التهمت منطقة واسعة .

وكان الزعيم قد لجأ الى أقرب قرية ليستنجد باهلها ويجمع صفوف المجاهدين من جديد .



البحيرة السوداء

كان الوقت فجراً ....

وكان الفصل ربيعاً ....

وكانت أشجار الغابة مورقة ....

وكانت زقزقة العصافير مشجية ....

ولكن زامكو الصغير كان يبكي بجانب جثة أمه ؛ فقد حملته إلى الغابة وهى مريضة بحثاً عن أبيه ، حتى تودعه اياه لاحساسها بقرب منيتها ، ولكن القدر عاجلها قبل أن تدرك ماتريد ، رغم قربها من البحيرة السوداء .

• • • •

كان الدمع الهتون على وجنتيه يسيل فى صمت تارة ؛ ووسط عاصفة من الغضب تارة أخرى ، فكان الطفل يركل كل شيء بقدمه الصغيرة كأنه يعلن نبذه الدنيا وأنه لا يريدها، ويهدد بقبضتى يديه الغابة ، ثم يسمع أو يرى شيئا فيلزم الصمت ، ويعتريه اليأس فيعود إلى البكاء ، والجثة الهامدة بجانبه لا تستطيع حراكا ، ولا تستطيع لبؤسه دفعاً .

كان أبوه قد هجر بيته وأعطى امرأته ماأدخره طول حياته ، وتطوع لمحاربة الاستعمار .

وكان قد عرف بشدة أحكامه الرماية فعينوه مدربا لرجال ماوماو ، لعلهم يوفرون رصاصاتهم القتيلة للاهداف الغالية ، وهى صدور الاعداء ورؤوسهم .

كان (وامبا) شابا قوى الساعدين ، وهو والد الطفل ، حاد النظرات .. ولكنه كان نحيلا جداً رغم طوله ، ولهذا قالوا له أنك شجاع ولكنك ضعيف لاتقوى على الجرى ومصارعة الجنود الحمـــر الوجوه إذا اقتضى الأمر ، فالزم مكانك ، بجانب البحيرة ، البحيرة السوداء .

● ● ● ●

وقد وصفوا البحيرة بالسواد رغم صغرها وجمال ماحولها لما أطلق حولها من اشاعات ، فيقال أن فيها وحشاً أسود ، له زعانف كبيرة تشبه زعانف السمك ،وله وجه وذراعا انسان . ولكن له جسدا غريب الشكل نصفه بشر والنصف الآخر سمكة !

وكان سكون منطقة البحيرة السوداء مخيفاً جداً ، لدوريات الجنود الانجليز ، فكانوا يعرفون عنها هذه الخرافة ، ويعتقدون أن الأفريقيين يتجنبونها خوفا ، فلا ضرورة للمرور بها .

وسمع صياح الطفل مرة أخرى قرب البحيرة السوداء ، وهي أعمـــق مكان فى الغابة وابعد موقع عن العمران فيها ، فخرج من البحيرة شكل بشع كما يصفه القرويون والصيادون تماما ، خرج من الماء وجعـــل يتلفت يمنه ويسرة ، ثم جلس على حافة البحيرة وخلع ثوبه الأسود ، وظهر أنه شـــاب نحيل ، أنه وامبا ، الزمه ضعفه البدنى بهـــذه الحيلة ، ليلجأ بثوب الرجال الضفادع إلى أعماق البحيرة كلما أحس لعدو دنواً . أو كلما أدرك أن الخطر على وشك أن يحيق به .

● ● ● ●

وكان (وامبا) قد جند من سنوات ودرب على اطلاق النار فكان أعظم جنود الفرقة الأفريقية إحكاما للرماية ، ولكن ضعف بنيتـه جعلهم

يوسلونه إلى قيادة لواء الاساس لعلهم يجدون له عملا آخر ، فعمل طاهياً مدة ، وجنديا بحرياً مع فرقة الرجال الضفادع على ساحل كينيا مدة أخرى. فكانوا يحومون حول السفن المريبة ليروا أن كانت تحمل مواد مهربة للماوماو أم لا ؛ إلى أن سئم كل شيء وفر من الجندية وجند نفسه لتحرير الوطن ، ثم لزم البحيرة وجعل يلجأ إلى مايقرب من القاع كلما احدق به خطر ، فشاعت عنه هذه الاشاعة الغريبة ؛ اشاعة الوحش المخيف الغريب .

وكان الرفاق يعلمون بأمره ، ويرحبون بهذه الاشاعه ويعملون على رواجها ؛ فقد اخترع لهم شيئاً مفيداً . هو وضع الذخيرة فى قرب ماء فارغة ؛ وسدها باحكام ثم ربطها بحجر . وارسالها إلى القاع القريب من الشاطئ لإخفائها عن الأعين ؛ فكان الرفاق يمزحون ويسمونه « ملك الذخيرة » فوق اسم « الوحش الأسود » .

● ● ● ●

سمع (وامبا) صياح الطفل فخلع ثيابه وأخفاه وتوجه اليه . وكم كان ألمه ممضاً حين عرف أن زوجته كانت قد أوشكت ان تصل الى مخبئه ؛ لولا أن عاجلتها منيتها .

أمسك الطفل بذراعين مرتجفين ، وقبله فسكت الطفل ؛ ومد يديه الصغيرتين فعانق أباه ودنا بوجهه منه ، كأنه يعلن ترحيبه به .

ووجد (وامبا) على صدر الطفل حجاباً لم يره من قبل ، يخال من يراه أنه ... والتعاويذ : ولكنه يعرف أن امرأته كانت تتعلم فى حداثتها فى مدرسة دينية أجنبية . وأنها نالت من الثقافة الدينية قسطاً ، ولا يمكن أن تؤمن بأساطير الأولين وخرافاتهم ؛ وكان فى الحجاب آخر رسالة من الرفاق اليه .

ولكنه تبين موضع الجثة عن كثب منه . فاسرع إلى آلات قرب مخبئة وحفر لها حفرة كبيرة عند جزع شجرة باسقة ، ثم واراها الثرى والدمع السخين يذرف من مآقيه . وكان الطفل يتشبث به ويصرخ ، كأنه يريد لدفن أمه تحت كوم التراب دفعاً .

• • • •

كانت الداورية قد اقتربت من حدود منطقة البحيرة وادارت لها ظهور أبنائها استعداداً للابتعاد عنها ، ولكن صراخ طفل ، والصمت الذى يحاكى صمت القبور ، لفتا نظر قائدها المدرب على حرب العصابات ؛ فاشار اليهم أن يقتربوا منه ثم وزع عليهم اوامره همسا ؛ وما هى الا دقائق حتى كانوا قد اطبقوا على واميا فى دائرة واسعة .

أذهلهم منظر الرجل الفارع الطول النحيل البدن وبجانبه طفله يبكى . وكان طبيعياً أن يضع الطفل جانباً . وان ينظر بين الجنود لعله يجد ثغرة يفر منها . ولكن رأى الطفل يبكى ويتجه نحو الحفرة ويعبث فيها بيديه مما لفت انظار الجنود فأخرجوا الجثة من قبرها .

وكان أول مابدر لهم ان الرجل قتل زوجته وواراها الثرى وأوشك على الرحيل بعد دفنها ، ورأوا بجانبه مدفعاً رشاشاً حديثاً فامسكوا به ؛ وفحصوا الجثة فلم يجدوا فيها ثقباً واحداً ، فازداد عجبهم .

ولم يكن هناك بد من جر الرجل وابنه وحمل الجثة إلى اقرب مركز عسكرى بريطانى ، يحرسه جنود افريقيون

وكان طبيعياً ان يتعرف بعض الجنود السود على الرجل النحيل الطويل ويصيحوا (واميا . . واميا) ثم تبين للانجليز من خونتهم أنه من اشجع

رجال ماوماو وأنه كان فى لواء الاساس ثم انتقل إلى فرقة الضفادع واختفى أثره لتطوعه للجهاد

• وسجن وامبا أياماً ريثما تفحص الجثة ويأتى تقرير الطبيب ؛ واعطى الطفل لسيدة افريقية لتربيته فلم ينقطع له بكاء ؛ وكان وامبا يطلب رؤيته فهزن الضابط الانجليزى الذى يشرف على السجن رأسه نكاية به وإثارة لاعصابه وأتخذوا الطفل ورده اليه او رؤيته له وسيلة للمساومة ، كى يدلهم على ما يعرفه عن اسرار المجاهدين ، دون جدوى .

ورغم أن الطبيب أقر بأن المرأة ماتت ميتة طبيعية لشدة الجهد والعناء فان الجنود الحمر الوجوه زعموا ان وامبا قتل زوجته ، ثم شنقوه فى اقرب شجرة من البحيرة السوداء ؛ وقالوا وهم يتضاحكون بعد ان جحظت عيناه وتدلى لسانه المزرق الطويل انه سيطرد شبح البحيرة أو وحشها بعدان تتعفن جثته !

• • • •

وعلم الرفاق بان وامبا مات وان جثته أصبحت فريسة لجارحات الطيور فحزنوا عليه حزنا شديداً . وتسللوا فى الليل إلى مكان ليخرجوا ذخيرتهم وجعلوا يغوصون ويظهرون على سطح الماء للتنفس ، ثم يعاودون الكرة إلى ان أخرجوا القرب من مكانها وجففوها واخرجوا الذخيرة وقضبان الديناميت التى كانت تخفيها اجوافها .

وقال صديق لوامبا ان السلاح فى ايدينا والذخيرة بجانبنا فلننزل الجثة ونحتفل بدفنها ؛ وليأت الجنود الحمر الوجوه ان ارادوا .

وصاح الزملاء صيحات الاسى واللوعة وداروا فى دائرة يستعدون لموكب

الحزن . ولكن الرئيس اشار اليهم ان الجثة متعفنة ولا يجـــوز الاقتراب منهـــا .

وقالوا ان الطيور الجارحة تنتهك حرمة البطل فى مثواه الاخير فاشار عليهم ان يوقدوا ناراً حول موضعها . ثم ينقلوا الذخيرة إلى مكان مأمون.

ولكن النار نبهت جنود الاستعمار فاتوا فى سيارات الجيب السريعة مدججين بالسلاح واحاطو بالجماعة .

فاسرع هؤلاء إلى الذخـــيرة يحتمون فيها . وتدلوا باحبال فى البحيرة يتخذون من شواطئها درءاً لهم كأنها اصبحت خندقا كبيراً ، ونزل الجنود من سياراتهم وانبطحوا على بطونهم وبدأت المعركة حامية إلى ماقبل الفجر بقليـــل .

وصاح الرئيس : القوا بقضبان الديناميت إلى عدوكم ثم اطلقـــوا عليه الرصاص .

وفعل المجاهدون ذلك ، فكانوا يلقون بحزمة من قضبان الديناميت إلى مكان السيارات ثم يطلقون عليها النار إلى ان تنفجر وتحدث دويا شديدا . وتتطاير اشلاء الجنود فى كل مكان . فتراجعوا يطلبون مدداً ، ولكنهم لم يتركوا الحصار بل وسعوا دائرته .

● ● ● ●

الفجر يخرج خيوطه الساطعة الأولى من كبد السماء
قبيلة « وامبا » لم تستيقظ بعد .
ومواء القطط وعواء الكلاب يحيط بالاكواخ الفقيرة ويكاد يحجبها عن كل صوت خارجى .

« وكاتاً » يدق باب كوخ بحذر

ثم تسمع تنهدات رجل يحب النـــوم إلى الصباح ، انه غليظ الرأس عظيم البطن ولكنه اعظم من يضرب بالرمح ويصيب الهدف فى حفلات العرس ، بل انه الرجل الذى يعرف لكل داء دواء

انه ساحر القرية وحكيمها ، وابن عم لوامبا

خرج يتثاءب فروى له (كاتا) مأساة وامبا ، وقال ان جثته معلقة فى شجرة وان الطيور الجارحة التهمت الجزء الأكبر منها : وانهم محاصرون من كل جانب .

واسرع الساحر إلى طلاء وجهه ولبس تاجه المزين بالريش الملون الطويل .

ثم خرج إلى ساحة القرية وصاح صيحة مدوية . وجعل يهز الحربة فى يده ويرقص رقصة الحرب ويقول بصوت عال ونغمة حزينة «وامبا. وامبا»

فخرجت القرية صامتة لتشاركه هذه الجنازة الصامتة .

لقد ادركوا أن (امبا) مات حتف انفه . فألتفوا فى دائرة حول ساحرهم وجعل هذا يروى لهم القصة فى انغام حزينة

« تعالوا معى إلى الغابة ايها الابطال . . . »

« وامبا يرقص فوق الشجرة رقصة الموت » .

« ابعدى مناقيرك ايتها الطيور الجارحة »

« ان جثمانه طاهر كجسد كل مجاهد شهيد »

« ان قومه استيقظوا عند الفجر للانتقام له »

« ابعدى مناقيرك أيتها الطيور الجارحة »

« فإنا ذاهبون إليه بالحراب والسيوف »
« إنا لآخذون بثأره وفاتكون بقتلته »
« إبعدى مناقيرك أيتها الطيور الجارحه »

❊ ❊ ❊

وولوت النساء ، وأسرع الرجال إلى حرابهم ودروعهم ؛ وبنادقهم من سلاح حديث وسيوف وخرجوا كأنهم سيل متدفق لا يقف فى وجهه شىء

❊ ❊ ❊

« وكان الصبح قد تنفس وأسفر عن شمس ساطعة »
« وكان الجنود قد أتوا بمدد وجعلوا يحفرون الخنادق »
« وكانت الجماعة المحتمية قد ضعفت لسهرها طول الليل والماء الى بطونها أو صدورها .

وإذا بصيحات مدوية من وراء الجنود ؛ ثم سيل متدفق من الأجسام السوداء اللامعة المفتولة العضلات بحرابها وسيوفها وبنادقها .
وكانت الرؤوس الحمراء الوجوه التى خزت بالسيوف الماضية أكثر من الرؤوس التى ثقبها الرصاص أو اخترقت الحراب صدور أصحابها .
واستمرت المذبحة نحو الساعة فلم ينج من الغاصبين ضابط ولا جندى وغنم رجال قبيلة وامبا السلاح والسيارات والذخيرة . وعانقوا رفاقهم الذين كادت سيقانهم تتجمد لوقوفهم فى الماء ساعات بلا حراك .
وأشار الساحر إلى الجثمان فقطعوا حبل المشنقة فسقط على الارض فأسرعوا بلفه فى عباءة أقرب الناس اليه . والقى كثيرون قطعاً من ثيابهم الغالية تكريماً له فى مثواه الاخير . ثم أشعلوا النار فى الجثة حتى لا يصيبهم مكروه من تعفنها ، وجعلوا يرقصون حولها رقصة الفرح ويغنى الساحر بصوت رقيق مؤثر ..

« انتهت رقصة وامبا فوق شجرة الموت »
« وقطع حبل الغاصب فلم يعد له وجود »
« تعالى أيتها الطيور الجارحة فان جثث العدو تناثرت »
« وأخذنا بثأر وامبا قرب شجرة الموت »
« وقطع دابر الغاصب وطهرنا الأرض من دنسه »
« تعالى أيتها الطيور الجارحة وكلى ما تريدين »
وصمت الساحر لحظة .

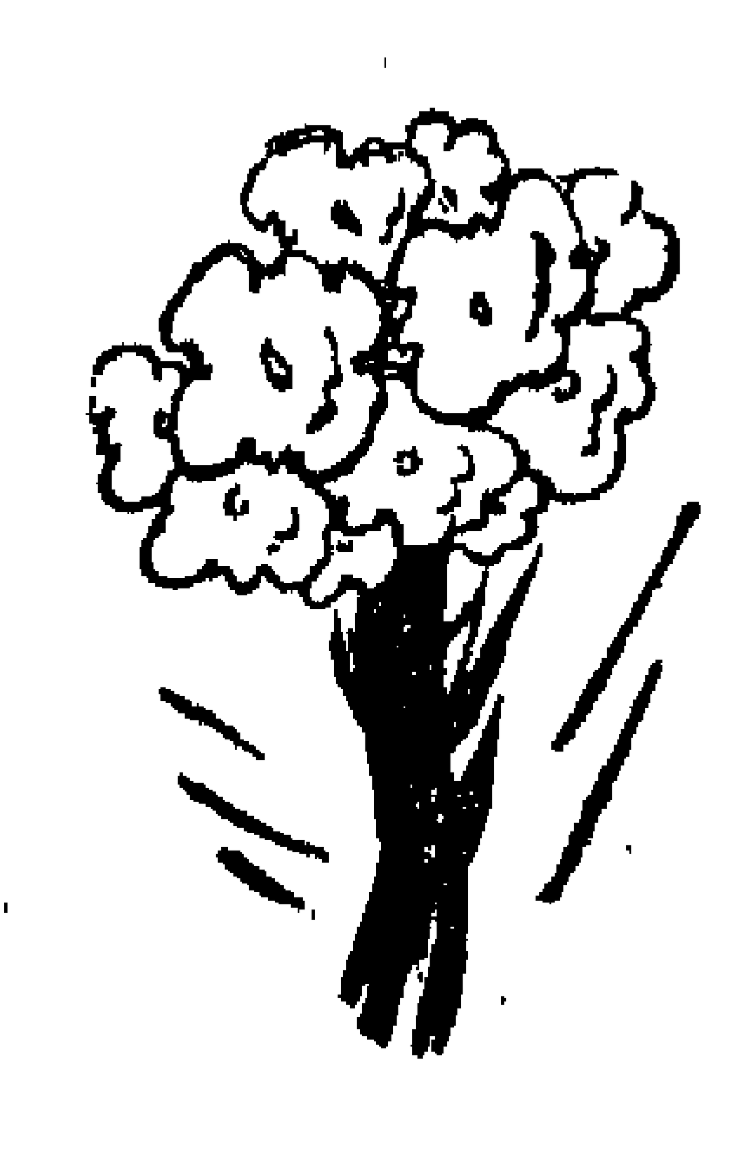
ثم نظر الى مكان الجثه المشنوقة قبل ذلك فخيل اليه أن شبح وامبا يجلس على الشجرة مدليا ساقيه .

وأنه يهز حربته بيده ومعه درعه ينقر عليه نقراً موسيقيا ليبدأ الرقص ،

وأن الشبح يبتسم ابتسامة شاحبة ولكنها تنم عن غبطة ورضى .

فجعل أبناء عم وامبا يرقصون ؛ إلى أن خشوا دنو المستعمرين . فاسرعوا بالتفرق فى الغابة .

ومن ذلك اليوم أصبح رجال القبيلة كلها من المجاهدين فى صفوف ماوماو .



المشانق في كينيا

للشاعر محمد الجبار

أعدمت بريطانيا ١٠٧١ من أبطال كينيا بتهمة الكرامة الإنسانيـــة

حينما فرت النسائم في الفجر خلال المشانق المنصوبة .
وارتمى الفجر وهو أول فجر يعكس الظل عن جراح خضيبة ..!
ناقلا للسماء من لمعة الجرح بريقا .. كصرخة منسوبة .
جثث في الفضاء وتحتها الموت فصارت ظلالهن دروبه
جردوها من الثياب ، فباتت في ثياب من الدماء مهيبة ..!
وبدأ كل هالك كـثني مد كـفيه ـ ثم ضم صليبه .
وعلى وجهه ابتسامة جرح . غفرت للورى الشقى ذنوبه .
ثم مات الصدى ، فولوت الريح ، يبث الاله فيهـــا نحيبه
وبدت رقصة الظلال على الأرض يضم الشيوخ فيها الشبيبة .
وتسير الحياة في كـنف الموت ليلتقى النهار فيها مشيبه .

☆ ☆ ☆

يا لأم : تميل في الحبل ثملى . وبفيها ابتسامة مخضوبة .
جعلوا شعرها الطويل كحبل لرضيع لم يدر يوما نصيبه ..!
.. ثم هذا العجوز . قد هتف الثار على وجهه ينادي شعوبه .
يا اخي رجفتي انتفاضة شعب سوف يمشي لأرضه المنهوبة .
يا اخي . هل مشانق الظلم تقوى أن ترد الحقوق يوما سليبه ؟

يا اخى فى رحاب كينيا . قضاياك فى دمى قضايا العروبة .
يا اخى . ما بعدت يوما عن النيل ، فان الجراح دوما قريبة .
هذه الشمس موعد نتلاقى فى لظاهـــا يضم كل حبيبه .
وعلى الشاطىء البعيد صبى ، راكع فى التراب يبكى أباه
يا أبى قد فقدناك والعيد آت ، هل هدايا الأعياد شجو . وآه
ان أمى فى البيت عصبها الليل فصارت ضريرة فى دجاه
وأخى هارب يلاحقه البغى فيجرى مطاردا من صداه
أرضنا .. أرضنا .. اغاروا عليها . نحن فى دارنا اسارى الطغاة !
انا جوعان يا ابى واراهم حصدوا زرعنا وضموا جناه .

* * *

لم تهتز فى الحبال صموتا .. در عنى الدموع .. يا ابتاه ..
قد سألناك ان تعود الينا .. هل تركت الذئاب ترعى الشياه .
يا ابى . هل نسيت يوم زرعنا قطننا فى الدجى .. فشع سناه .
ثم جاء اللصـــوص وانتهبوا القطن وصاحت سياطهم فى العراه .
انسجوا ياعبيد منه خيوطا ، فيها تصنـع الحبال العتاه .
الحبال التى سيشنق فيها .. من ينادى بحقه فى ذراه

* * *

يا ابى .. كم ذكرت بين لداتى ان لى والدا كظل الاله ..
قامة تبسم المهابة فيها .. وجبين له تخر الجباه .
كم عزيز على .. حين تلويت كمسخ معلق فى فضاه .
تتلهى الرياح بين يديه .. وهو من ساقت الرياح يداه
وتحط الغربان فى كتفيه . وهو من أرعب يداه البزاه
يرجم الأجنبى جثته الكلمى ويرمى جبينه .. بحصاه ..

فيعود الحصى على الأرض يجثو . . وهو يبكى مستغفراً فى صلاه
فهو من أرضه .. وسقيا يديه .. كيف يقسو على الذى قد رواه .

* * *

يا ابن تلك السفوح .. يارافع الطود .. أهل صرت جثة فى رباه ؟
ابدا مافنيت ياغرس الدوح .. فانت الذى يصوغ الحياة ..
انت فى مخبأ الظلام لهيب .. زاحف .. زاحف .. لوجه البغاه .
انت فى صرخة الرياح وعيد . راح يعدو ملوحا للعداه .

* * *

سنراهم على المشانق .. والريح كقس متمتم فى خطاه .
اكتبوا من دمائكم فى ثرانا .. فى اعترفات قاتل للأباه ..
ربمـا يغفر التراب ويرضى .. أن يضم العدو .. تحت ثراه . .
إن ليل الطغاه فى الصبح أعشى .. سوف يمضى .. وفى يديه عصاه ..

(نظمت هذه القصيدة تمجيداً لكفاح
شعب كينيا واعجاباً ببسالته فى المعركة
التى يخوضها لتحرير بلاده ونشرت بمجلة
التحرير)

☆ ساهم فى الحركة الوطنية وهو لم يتعد الحادية عشرة من عمره عندما اشترك فى مظاهرة وطنية عام ١٩١٩ ضد فظائع الاستعمار البريطانى فى مصر .

☆ أعتقل وهو فى الرابعة عشرة من عمره وحوكم أمام محكمة عسكرية بريطانية للتحريض على الامتناع عن تلقى الدروس احتجاجا على نفى الزعيم الوطنى الثائر سعد زغلول إلى سيشل ولكن أخلى سبيله لصغر سنه .

☆ أما فى هذه المرة وكان يبلغ حينئذ السابعة عشرة من عمره فانه نزل ضيفا على السجن لسنوات طوال بتهمة الاشتراك فى اعمال عنيفة ضد قوات ومنشآت الاستعمار البريطانى فى مصر ولم يفرج عنه إلا فى عهد إحدى الوزارات القومية .

☆ عمل بالصحافه أكثر من العشرين عاما فى الاقسام الخارجية ويعتبر أحد الثقات فى الشئون الدولية وفى التراجم السياسية والصحفية ؟

وجيه راضى

مطابع دار قنديل للطباعة والنشر
٥٩ (٢) شارع العباسية